التسكع مع الشيطان

المحطة الأولى من رحلة الصدام الكوني

عبد الحق الصولاحي

التسكع مع الشيطان

المحطة الأولى من رحلة الصدام الكوني

عبد الحق الصولاحي

الإهداء

إلى كل الذين أسأت إليهم قبل مراجعاتي و تراجعاتي

سيدي القارئ

تسكعت مع الشيطان طويلا دون أن أكتشف وجوده ، ثم تعرفت عليه و حاربته ، ثم صادقته فترة من عمري و عملت تحت لوائه ، ثم انقلبت عليه لأنجو بنفسي ، و ما سأكتبه سيدي القارئ عن محطاتي الخمس التي قطعتها في رحلتي القصيرة ، رحلة الصدام مع الشيطان ، يمكن تلخيصه في كلمتين لو كنت قادرا على إسقاطهما على واقعك و العمل بهما فأنت في غنى عن قراءة هذه المذكرات ، بل انك لو فعلت لكنت حلقة عظيمة في سلسلة تاريخ الإنسان حتى لو لم يسمع بك أحد من أهل الأرض .

سيدي القارئ ثمرة رحلتي تتلخص في كلمتي« نفسك أولا» وإليك التفاصيل .

اسمي شعيب مودود ، عمري سبعة و ثلاثين سنة ، أقيم حاليا في سجن بالمغرب ، الحكم إعدام ، التهمة إسلام حركي .

قبل أن أبدأ في سرد الأحداث أريد منك أمرين .

الأول : اعلم أني تراجعت عن كل قناعاتي السابقة بما فيها ما كنت اعتقده في المحطة الرابعة التي أنا بسببها الآن في السجن ، و أعترف أنها كانت محطات غير صائبة بعيدة عن الحق و لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما خضت بحرها اللجلج ، و إني لا أجيز لك محاسبتي و انتقادي عليها .

الثاني : يمكنك مجادلتي في محطتي الأخيرة و هي التي أفخر بها لأنها ختام رحلتي ، و لأنها أيضا جعلتني أحب الإنسان و أعرف قيمة الإنسان و أعتز كوني أنتمي إلى الإنسان .

نعم سيدي القارئ لقد قررت الانتماء إلى أمة الإنسان. لا أكلمك بالألغاز ولكن تابع معي قصتي و ستعلم أسرارا محاولة كشفها سببت القتل لأناسي كثيرا كما أنك ستحصل على معارف توارثتها الصدور و منعت منها السطور ، سأعطيك سيدي القارئ مفتاحا لجميع الألغاز الكونية ، حتى التي لم أسمع بها ، و حتى التي لم تشكل بعد .

سيدي القارئ قد لا تصلك مذكرات رحلتي و قد تصلك محرفة .

بداية المحطة

السادس من غشت سنة ألف و تسعمائة و ثمانية و تسعين ، توجب عليّ مغادرة قريتي الواقعة بإقليم دكالة و الانتقال إلى حي هامشي بضواحي مدينة الدار البيضاء ، أو ما يسمى بالدراجة المغربية كاريان للعيش مع عمتي نعيمة و الهدف هو مواصلة دراستي الثانوية و دون الخوض في الأسباب فقد كان هذا هو الخيار الوحيد المتاح إذا ما أرددت مواصلة دراستي .

في حي كولمبيا كانت تقطن عائلة يحيطها الغموض من كل جانب ، تعرف بين سكان الحي بعائلة القطط ، و سبب تلك التسمية يعود إلى أن جميع أفراد تلك العائلة عيونهم زرقاء تشبه عيون القطط ، و كانت تلك العائلة تتكون من الأب السيد عبد القدوس المرواني ، كان في الثالثة والستين من عمره ، و كان لا يغادر البيت على الإطلاق كما راجت بعض الأقاويل على أنه كان في ما مضى من أثرياء البلد أما الأم فكان الجميع يعرفون أنها توفيت قبل حلولهم بالحي .

أكبر أبناء العائلة كان اسمه حمزة ، تاجر حشيش معروف في الدار البيضاء يبلغ من العمر اثنين و ثلاثين سنة ، كان يتكلم اللغة الانجليزية و اللغة الفرنسية بطلاقة و يُسر و لا أحد من سكان الحي كان يعرف أين تعلمهما .

الابن الثاني عادل المرواني كان عمره تسعة و عشرون سنة ، كان بالإضافة إلى زرقة عينيه يملك شعرا أشقرا طويلا غالبا ما يرسله خلفه إلا في حالات تأهبه للعراك فإنه كان يغطيه بقبعة أو غيرها .

الابن الثالث أحمد المرواني ستة و عشرون سنة ، أكثر إخوته تهورا و إثارة للمتاعب سريع الغضب و سريع الفتك ، تخشاه كل ساكنة الحي ، كان لا يتاجر بالحشيش إلا إذا تصادف أن أخويه و قريبهم منير كانوا جميعا في السجن . و منير هذا كان يعيش في بيت المرواني عمره قريب من عمر عادل و لم يكن سكان الحي يعلمون صلة القرابة التي تربطه بعائلة المرواني فقط بعض الأقاويل من هنا أو من هناك .

و أخيرا صفية المرواني و هي البنت الصغرى و الوحيدة في الأسرة ، اثنان و عشرون سنة تشبه عادل كثيرا و كأنها أخته التوأم ،غير أنها كانت نحيفة بصورة لافتة و السبب هو أنها كانت تعاني من مرض مزمن على مستوى القلب ، لم تشأ أن تخوض في تفاصيله يوما و لن نفعل الآن .

كان معظم أو كل شباب الحي الفقير يخضعون للقطط بصورة غير طبيعية ،الطيبون و المنحرفون على السواء ، فالطيبون يكنون لهم احترام غريب ، و المنحرفون يدينون لهم بولاء مريب ، و من الصنف الثاني كان مبارك ابن عمتي ، و هو أكبر أبناء عمتي و كان عمره سبعة و عشرون سنة ثم تليه فاطمة ثلاثة و عشرون سنة و كانت صديقة لصفية المرواني ، بل صديقتها الوحيدة و لم يدخل بيت المرواني من سكان الحي إلا فاطمة وأنا فيما بعد و هذا على حسب علمي ، أما أصغر أبناء عمتي فكان رشيد و عمره ثمانية سنوات .

في الوقت الذي صرت فيه من سكان حي كولومبيا و كان ذالك اضطرارا كما أسلفت و ليس بطولة مني، كان حمزة المرواني يقضي شهوره الثلاثة الأخيرة في السجن، و كانت مدة محكوميته سنتان ،كان

زعيم الحي حين ذاك إذا صحت هذه التسمية هو عادل، ذاك الشاب كان ضحكه أكثر من كلامه و كان رفقائه يتنافسون على إضحاكه ، و كان يضحك من أسخف الأشياء ، كان لقائي الأول به بعد قدومي إلى الحي بحوالي خمسة عشرة يوما ، كنت عائدا من الثانوية برفقة فاطمة ابنة عمتي و فجأة ضربت بيدها على صدرها و قالت :

– مبارك .

و ذهبت تجري من خلال زقاق ضيق ، تعجبت من فعلها و تابعتها بنظراتي إلى أن توارت ، و لمّا حاولت اكتشاف ما الذي رأته و سبب لها هذا الذعر رأيت على بعد حوالي مائة متر عن يميني حلقة مكونة من مجموعة من الشباب ، ستة بالضبط ،أمعنت النظر و تبين لي أن اثنان منهم يتعاركان ، كان أحدهما مبارك ابن عمتي ، ركضت نحوهم و في نيتي فض الشجار لا المشاركة فيه ، و لمّا اقتربت منهم مسافة عشرين مترا اعترض طريقي شابان من الستة و قد أشهر كل واحد منهما سكينا من الحجم الكبير ، و هذا ما جعلني أقف متسمرا في مكاني ليتبيّن لي أن مبارك لم يكن يتشاجر و إنمّا كان واقفا يتلقى الصفعات من خصمه دون حراك ، أغضبني خضوعه و استسلامه فتناسيت الشابين و السكينين و ثرت ، تحركت و أنا نصف واعي بما يدور حولي لأجد في يديّ الاثنتين حجرين لا بأس بهما ، صحت في الشابين بإفساح الطريق و مهددا المعتدي بتفجير رأسه إن لم يتوقف عن صفع مبارك .

التفت إليّ عادل بطريقة ربوتية و ركز بصره في عينيّ ، لم تكن نظرته تحمل أي مشاعر لا غضب لا تحدي لا خوف لا شيء ، كانت نظرة باردة جعلتني أرجع إلى وعيي . رفع يده و أشار إلى أحد مرافقيه و كان قد همّ بضربي بحجارة من الخلف أن يتوقف و في اللحظة الأخيرة و لو لم يفعل لعلم الله أين كنت أنا الآن ، ثم أدار ظهره لي و صفع مبارك صفعة أخيرة ، فكررت تهديدي ، و قبل أن أتمه كان عادل يسير نحوي و هو يبتسم قال بهدوء :

– اضرب

حاولت أن أتراجع غير أنني تسمّرت بسبب سلطان سمعته و سلطان جماله و سلطان نظرته العميقة و ظللت في مكاني إلى أن صار بالقرب مني .

قال مبارك :

– دعه يا عادل لا تقحمه .

قال عادل :

– لم أقحمه هو من اقتحم

ثم قال لي بصوت منخفض ربما لم أسمعه إلا أنا و هو :

– هل تدافع عنه لأنه ابن عمتك ؟

– أدافع عنه لأنه عاجز عن الدفاع عن نفسه .

– هذا جميل إذا كنت قادرا عن الدفاع عن نفسك أولا .

– أنا قادر عن الدفاع عن نفسي و لا تهمني بعد ذالك الخسارة و لا النصر .

– في شجار مثل هذا لا يوجد نصر و إنما خسارة و خسارة .

لم أفهم قصده في ذالك اليوم و لم أحر جوابا ، وعلى ما أظن أنه كان يستعد لتوجيه لكمة لي قبل أن يهمس له الشاب الذي همّ بضربي بالحجر .

– عادل صفية قادمة

تغيرت ملامحه و ظهر الغضب عليه لأول مرة ، قال للشاب :

– منير خذ الشباب و مبارك و غادروا بسرعة .

ثمّ التفت إليّ و قال :

– لم ننتهي بعد و لكن انقلع الآن .

حاول مبارك جرّي لمغادرة المكان ، سحبت يدي من قبضته ، كنت أشعر اتجاهه بالحنق ، طأطأ رأسه و غادر بعد أن أحس بحنقي عليه . و كان أنه لمّا رأت فاطمة أخاها يضرب من طرف عادل و رفقائه جاءت ردّة فعلها طبيعيا بأن ذهبت تستنجد بأخت المعتدي ، صديقتها الحميمة و كان تصرفها خيرا بالنسبة لأخيها و بالنسبة لي أنا أيضا. وقفت صفية تكلم عادل بهدوء وكانت كما أسلفت تشبهه كثيرا ، غير أنها كانت نحيفة جدا ، أدهشتني خلقتها فلم يسبق لي أن رأيت إنسانا بذاك البياض ، بل بذاك الإشراق مع ذالك الشحوب ، عاتبتني فاطمة و أثر الخوف لم يفارقها بعد ، قالت :

– لم أكن أحسبك مثيرا للمتاعب ، لماذا تدخلت في الخصومة ؟

استغربت من مهاجمتها لي بذالك الشكل ، لم تنتبه لاستغرابي ، تابعت :

– يجب عليك العودة إلى قريتك قبل أن يحمل خالي مسؤولية ما قد يصيبك لأمّي .

و في الوقت الذي كنت أحاول فيه استيعاب كلام فاطمة الغير متوازن تكلم عادل وقد زال عنه الغضب :

– فاطمة ، رافقي صفية إلى البيت .

ذهبت فاطمة و صفية من حيث أتيتا ، و سار عادل حيث ذهب الشباب الخمسة ، و تحركتُ بطريقة ميكانيكية نحو بيت عمتي و أنا أشعر بالحيرة ، هل ما فعلته كان خطأ أم صوابا ، قابلت عمتي في الطريق فقد وصلتها أخبار الشجار ، لم تسأل عن مبارك و لا عن فاطمة ، سألتني .

– هل أنت بخير ؟

و شرعت تطوف بي فلما أطمأنت أني لا زلت بكامل أطرافي هاجمتني كما فعلت فاطمة من قبل .

– يا ابن أخي لو كنت أعلم أنك مثير للمتاعب لمّا وافقت على استضافتك لم يمض شهر واحد على قدومك و ها أنت تريد أن ...، اسمع يا شعيب أنت هنا للدراسة و لا علاقة لك بأحداث الحي ، و إذا مرّت هذه الحادثة على خير فستكون إنذارك الأول و الأخير .

لم أستطع أن أرد عليها و لو بحرف واحد و هذا ما جعلها تلطف خطابها فيما بعد ، ظللتُ مدة بعد الحادث أحاول اكتشاف مكان خطأي و بعد جهد مضني توصلت إلى استنتاجين محتملين ، الأول هو أن عائلة القطط هاته استحوذت بالرعب على قلوب سكان حي كولومبيا الفقير ، و الثاني هو أن داخل الأحياء الشعبية تعالج المشاكل بطريقة فردية دون تدخل عصبية القرابة ، و طبعا كان كلا الاستنتاجين خاطئين ، أما الحقيقة التي علمتها فيما بعد فهي أن أسرة عمتي ، كانت تعلم أن الذي يتجرأ على مصادمة عادل و تحديه ، إذا استطاع النجاة من شر منير فإنه لن يفلت من بطش أحمد ، و كانت عمتي متيقنة أنه متى سمع أحمد بالخبر فإنه سيسعى على الفور ليجعل مني عبرة . و هذا ما جعلها تترجاني صبيحة اليوم التالي أن لا أذهب إلى الثانوية ، غير أن كبريائي جعلني أصر على الذهاب ، و عند عودتي بعد الدوام وجدتها تنتظرني على رأس الزقاق و ظل الأمر على ذالك الحال لبضعة أيام إلى أن تمّ نسيان الحادث .

أما مبارك فقد جلس إلى جواري ذات مساء حينما كنت أراجع دروسي و قال :

– لم أعجز عن الرد عليه لأنني ضعيف أو جبان .

ابتسمت باستهزاء .

– و إنما عجزت عن الرد عليه لأنه هو الشخص الوحيد الذي وقف بجانبنا يوم أن تعرض والدي قبل سنتين لكسر على مستوى الحوض في حادثة شغل ، هل تعلم ؟ لقد تطلب جبر الكسر عملية جراحية تكلفتها خمسة و عشرون ألف درهم ، جمع لنا سكان الحي حوالي عشرة ألاف درهم و لكنها كانت غير كافية لإجراء العملية ، أما عادل فقد أحضر لي تحت جنح الظلام عشرين ألف درهم و اشترط عليّ أن لا أخبر أحدا بالأمر .

– و هل الجميل يجعلك تنبطح للمحسن ؟

– ليس الجميل و إنما إقراري بالخيانة ، لقد قبضت عليّ الشرطة و أذعنت لأساليبها و وقعت على محضر أعترف فيه أن عادل يتاجر بالحشيش و قد اشتريتها منه مرارا .

– و هل اشتريتها منه بالفعل ؟

– أنا أحصل على الحشيش بالمجان .

لم أستطع فهم طبيعة العلاقة بين هؤلاء الأشخاص ، ولم أعد أريد التفكير في ذالك وأخذت إنذار عمتي على محمل الجدّ و مضيت أطوي الأيام إلى أن أعترض طريقي ذات يوم شاب برفقة فتاة ، كانت عيناه زرقاوان و شعره أشقر كما أن بياضه كان مشروبا بحمرة و جسمه ممتلئ قياسا بطوله المتوسط ، أشار إلي و قال :

– شعيب ؟

– بشحمه و لحمه .

– هل عرفت من أكون ؟

– أظن أنك أحمد المرواني .

– كيف عرفت ؟

– لأنهم أخبروني أنه لا بد و أن تسعى لا فتعال مشكلة معي ، و لأنك تشبه القطط .

قهقهت الفتاة .

– ليس مشكلة ، و لكن تغيير مسار حياتك إلى الأسوأ .

– مسار حياتي ليس بيدك .

– ربما تكون يدي سببا فاعلا فيه .

– لقد مرت بضعة أيام على الحادث و أظنني تسرعت ذالك اليوم ، و لا أريد الاستمرار في هذه السخافات ، و أعتذر منك و من أخيك .

ابتسم بمكر و قال :

– يا شعيب ، مساء ذالك اليوم وصلني خبر الشجار و شعرت بغضب شديد ، و تولدت لديّ رغبة في الانتقام من مبارك و ابن خاله القروي ، و قبل أن أخطو خطوة واحدة وجدت أخي عادل يسحبني بعيدا عن أصدقائي . قال لي حينذاك يا أحمد مبارك نال عقابه و القروي ظريف و تدخله كان غريزيا و ليس عن حقد ، كما أن صفية و فاطمة في الموضوع و أرجوك أن تظل بعيدا .

– غريزيا !

– أنا أيضا لم أفهم ماذا كان يقصد ، ولا أهتم لذالك ، فعادل حاصل على الإجازة في علم الاجتماع و فلسفته لا تروق لي ، و كلمة أرجوك منه كافية لتجعلني أهش و أبش في وجهك ما لم تكرر تدخلك الغريزي .

– طيب ، لن أفعل .

– نحن أصدقاء الآن يمكنك الذهاب .

في مساء ذالك اليوم سألت مبارك إذا ما كان يعلم عن إجازة عادل في علم الاجتماع ، و كان جوابه انه لا علم له بذالك و كل ما يعرفه هو أن عادل لم يكن برفقة أسرته عندما انتقلوا للعيش في كولومبيا قبل اثنتا عشرة سنة ، و أنه التحق بهم بعد سنة من قدومهم .

من لا يفكر لا يغادر القطيع

في السنة الأولى ثانوي كان أستاذي في مادة الاجتماعيات السيد عبد المجيد الخاول ، ويلقبه الطلبة بأدونيس ، و قد صادف أن قام هذا الأدونيس بتأليف كتاب هزيل حشاه بمقتطفات معظمها من الجرائد ، و ليس له فيه إلا بعض التعقيبات السخيفة، أسماه قصور لغة العرب عن احتواء فنون الغرب .

و قام بطبعه على نفقاته الخاصة و ألزم جميع تلامذته و بكل الطرق بشراء نسخة منه ، و قد تيسر لي أن استعرته من أحد زملائي في بداية الموسم و قرأته في تلك الليلة نفسها و أعدته إليه في الصباح التالي ، لم يصدق زميلي أني قرأته بتلك السرعة ، و الحقيقة هي أني قرأته لأني لا أملك كتبا غيره أقرأها في ذالك الوقت و لأن صفحاته لا تتجاوز المائة و خمسين صفحة ، كان لأدونيس لائحة بأسماء الذين اقتنوا مؤلفه ، و حدث ما كنت أتوقعه ، تصفح لائحته و نادى :

– شعيب مودود .

– حاضر .

– أنت لم تحصل على نسختك من كتاب قصور لغة العرب .

– لا أريدها أستاذ .

ضحك زملائي و احمّر وجه الأستاذ و أدركت فظاظة إجابتي فتداركت .

– لأني قرأت المؤلف من قبل أستاذ .

– جميل ، و لكن يجب أن تكون عندك نسخة منه تعتمدها كمرجع .

– لا يصلح أن يكون مرجعا .

ضحك زملائي و قام أدونيس من على مقعده و تداركت :

– بالنسبة لي أستاذ .

– لماذا ؟

– لأني أظن أن اللغة العربية ليست بذالك السوء .

ضحك الطلبة و ضحك الأستاذ..... باستهزاء .

– إذا فكتابي بالنسبة إليك افتراء على تلك اللغة العقيم .

– لا ليس افتراءا عليها و إنما جهلا بها .

لم يضحك الطلبة و صاح بعضهم باستهجان وظل الجميع ينظرون إلي بتعجب ، لأنهم لم يتوقعوا من الطالب القروي أن يجادل أدو نيس في سبب فخره و افتخاره .

– شعيب مودود أثبت جهلي بلغة أبي جهل و أمامك أسبوعا ، وأريده بحثا مستفيضا و لا أحبذ رؤيتك في حصتي إلا و البحث في يدك .

طردت من الحصة و انتشر خبر المشادة الكلامية بين طالب السنة الأولى آداب و أدونيس ، ليصل الخبر إلى مسامع ابنة عمتي فاطمة التي كانت بالسنة الثالثة علوم تجريبية ، لمّا أخبرتني عن علمها بما حدث كنت على استعدادا لتقبل تأنيبها ، لأنني و بصراحة أوقعت نفسي في مشكلة كنت في غنى عنها ، غير أنها لم تفعل ، بل و على العكس من ذالك أبدت إعجابا كبيرا بموقفي و عرضت عليّ المساعدة بحماس كبير.

وهذا ما جعلني أفكر جديا في البحث الذي فرض عليّ ، كانت أفكار فاطمة في المسألة واضحة مباشرة بسيطة و صادمة بالنسبة لي و الفضل في ذالك يعود كما سنعلم لمعلمتها صفية المرواني أنجزنا مقدمة ليست بالسيئة ، وفي الوقت الذي اقترحت فيه استعارة المراجع الضرورية من مكتبة الثانوية ، اقترحت فاطمة أن تستعير المراجع من عند صديقتها صفية ، و قبل أن أستفسر أوضحت لي أنه يوجد في منزل المرواني مكتبة تحوي كتبا أكثر من التي في مكتبة الثانوية .

في مساء ذالك اليوم عادت فاطمة تحمل مجموعة من الكتب ، كان أبرزها ثلاثة أعداد من مجلة شهرية ابتدأ صدورها من العراق سنة ألف و تسعمائة و أحد عشرة اسمها لغة العرب ، كانت تلك المراجع كافية لإنجاز بحث يكشف سخافة الخاول و تفاهة مؤلفه .

ولندع البحث جانبا لبعض الوقت لأشير إلى أني تفاجأتُ من التناقضات التي تحيط بعائلة القطط ، و هذا ما جعلني أغتنم فرصة مشاركة فاطمة لي في البحث للاستفسار عن ذالكم البيت ، و قد عرفت أن الأب كان موظفا كبيرا ، أمّا الأم فقد تُوفيت في ظروف غامضة ، و أن حمزة و عادل تلقيا تعليما عاليا في ما مضى و أحمد مارس الملاكمة لحوالي سنتين و ذالك قبل التحاقهم بحي كولومبيا ، أمّا صفية فإنها لم تلتحق بالمدرسة إلا لست سنوات ، و لكنها صارت بفضل مطالعتها المستمرة . أكثر ثقافة من أدونيس نفسه ، و كذالك علمت أن منير صديق عادل منذ الطفولة و أنهم ترعرعا في نفس الحي و هو كما سنعلم حي راقي بوسط الدار البيضاء يسمى الوازيس. كما استشعرت من كلام فاطمة أن أبناء المرواني و خصوصا حمزة وعادل يكرهون السيد عبد القدوس ، و أنهم لا يتكلمون معه إلا نادرا ، أما عن مصاريف البيت فالسيد عبد القدوس هو من يتكلف بها ، و ذالك بفضل تأجيره لمحليين تجاريين يقعان بشارع في وسط سباتة ، و أن من يحضر الإيجار هو منير أو أحمد في بعض الأحيان ، و صفية هي المسئولة عن تدبير نفقات البيت .سُررت لمّا أخبرتني فاطمة أن صفية ضحكت لمّا علمت بجدالي مع أدو نيس ، وأنها لمّا طلبت المساعدة من السيد عبد القدوس في اختيار المراجع المناسبة ابتسم هو الآخر لما علمه و قال :

– الدهماء لا يشعرون بالشيطان حتى ولو أمسك بمخنقهم.

و لمّا سألتها عن مقصده من هذا القول قالت :

– و من يدري فكلام آل مرواني كله مطلسم ، وقد طلبت مني صفية الاطلاع على البحث إذا ما ثمّ انجازه.

و بالعودة إلى طامة البحث ، فقد ظللت طيلة خمسة أيام أنسج في الفقرات محاولا الربط فيما بينها ، غير أن تفكيري شغله قول المرواني الأب : « الدهماء لا يشعرون بالشيطان حتى ولو أمسك بمخنقهم » وبعد تأمل طويل خلصت إلى أن سبب اهتمامي بهذا القول يعود إلى إحساسي بأن المرواني قال تلك الكلمات و هو على قمة جبل شاهق و في سفح الجبل يوجد الدهماء و أنا من بينهم ، جعلني هذا الشعور أحس بغضب شديد و رغبة في الثورة على الأستاذ الخاول الذي حاول إرغامي على قبول أفكار اقتنع بها فسعى إلى تسويقها معتمدا على سلطته كأستاذ ، فعمدت إلى أوراق البحث و مزقتها ، و أخذت ورقة منفردة و شرعت بالكتابة ، و لمّا انتهيت كانت الحصيلة صفحة و بضعة اسطر .

في صبيحة اليوم الموعود أعطيت الورقة لفاطمة و أعلمتها بالذي فعلته بأوراق البحث ، لم أهتم لردة فعلها الغاضبة ، فقد كنت أشعر بتمام الرضا على ما أنا مقدم عليه ، أخذتْ مني الورقة بطريقة غير لبقة و خرجت وبعد ربع ساعة عادت بغير الوجه الذي ذهبت به .

– لقد قرأت صفية الورقة مرتين ثمّ قالت يجب أن ينظر أبي إلى هذا .

– و ماذا فعل السيد المرواني ؟

– قال بعد أن قرأ الورقة أظنه خارج القطيع .

– أظنه خارج القطيع !

– الأغرب من ذالك هو أن صفية حركت رأسها بالإيجاب تأييدا لكلامه ثمّ قالت (و يصدق عليه مرة أخرى قول غوته من لا يفكر يوهب العلم من دون عناء) قال السيد عبد القدوس (أخطأ غوته و لعله تعمد الخطأ ، من لا يفكر لا يغادر القطيع) قالت صفية (إذا فهو العقل) أجابها السيد عبد القدوس (بل الفطرة).

– بماذا أجابته ؟

– لا شيء ، أخذتُ الورقة و أحضرتها لك .

كنت في حصة الرياضيات التي تبتدئ عند الساعة التاسعة صباحا و تنتهي عند العاشرة حيث تبتدئ حصة الاجتماعيات عندما حضر طالب ضئيل الجسم و استأذن أستاذ الرياضيات قبل أن يخاطبني :

– يريد السيد الخاول أن يعرف إذا ما كنت أنجزت البحث .

– أظنني فعلت .

في الساعة العاشرة و خمسة دقائق وجدت في المقاعد الخلفية للفصل الأستاذ الخاول برفقة خمسة أساتذة آخرين ، و عندما أخذ الطلبة مقاعدهم عمّ صمت مطبق ، قطعه الخاول بمقدمة يمكن تسميتها خطبة المنتصر قبل الانتصار ، أعرب فيها عن تشجيعه للاجتهاد، و عن حبه للطالب الجريء ، و أنه لا يعتبر نفسه معصوما و ....و.....، و انتهى ، و عاد الصمت .

فتحت محفظتي و أخرجت الورقة اليتيمة ، سمعت همسات و ضحكات مكتومة، لم أشعر بالحرج و إنما شعرت بالغضب من تلك العيون التي تحدق بي ، أخذت كرسي الأستاذ من على مكتبه و وضعته في منتصف الصف و جلست أنظر إلى العيون الشاخصة .

– أساتذتي المحترمين ، زملائي و زميلاتي الأعزاء ، حصلت في الأيام الماضية على مجموعة من المراجع كان من بينها ، و سردت بعض العناوين ، و قد أنجزت بحثا مستفيضا كان من ضمن عنوانيه العريضة ، قدسية اللغة العربية و ارتباطها بالقرآن الكريم ، اللغة العربية أبرز اللغات السامية ، أقوال الغربيين في اللغة العربية ، مثانة بناء اللغة العربية ، إلى غير ذالك ، و لكني قمت بتمزيق أوراق البحث في آخر لحظة .....

– و السبب وجيه كما ستعلمون .

فتحت الورقة ، عاد الصمت ، شرعت في القراءة بصوت مرتفع بطيء و باسترسال مخافة أن أقاطع .

– السيد عبد المجيد الخاول قام بجمع بعض الأقوال السخيفة و الطعون التافهة في كتاب ليس له فيه إلا العنوان ، و هذا ما يجعلني أناقشه في عنوان الكتاب لا غير ، أمّا الترهات التي بين دفتي الكتاب فهي منقولات عن مجموعة من الدهماء الذين لا يشعرون بوجود الشيطان حتى و لو بات في خياشيمهم و تبوّل في أذانهم ، و بما أني مقتنع بأن النقل عنهم سفاهة فإني أجد مناقشة ترّهاتهم أقبح ، و أنا على يقين بأن معظم الطلبة الذين اشتروا هذا الكتاب مرغمين ، لم يقرؤوا منه حرفا واحدا ، و أجد أن هذا هو التصرف الذي يليق بمثل هذا المؤلف ، و نقول لهذا المنتج الغث ، اخسأ فلن تعدو قدرك .

أمّا عن العنوان فهو جهل و نفاق ، نفاق لكون الأستاذ طعن في شيء و هدفه شيء آخر ، إمّا لأن الشجاعة الأدبية خانته و إمّا لأن سلاح المكر و النفاق أنجع في التأثير على هدفه المصون ، هذا العنوان الجبان ظاهره الطعن في لغة و باطنه حرب على دين ، و لكي أكون صريحا ، فأنا لا أعلم الأسباب التي قادتني إلى هذه النتيجة و لكني اعلم علم اليقين أنها إصابة موفقة ، هذا عن النفاق أمّا الجهل ، فيتمثل في جهله بأنّ اللغة التي حسبها حلقة ضعيفة و خاصرة رخوة ، كانت قبل الدين و كانت قبل الإنسان و بها صار الإنسان إنسانا { وعلّمّ آدم الأسماء كلها } و كلها تعني جميع اللغات و من بينها العربية و هي توقيفية ، و لا فضل لنا و لا لآبائنا الأولين في إنشائها و ابتدائها و ابتداعها ، و إنمّا هي إرث تركه لنا أبونا آدم فنحن نتوارثه ، مثلها مثل الأبوة و البنوة و الذكورة و الأنوثة و غيرها من ثوابت الإنسانية ، و لأنه لا يناقش الجاهل في جهله إلا من هو أجهل منه ، فإني أعلن توقفي عن هذا الهراء .

عقب أستاذان على كلامي في حين لزم الآخرون الصمت و من بينهم أدونيس ، لم أحفل بانتقاداتهما التي تراوحت ما بين الإشارة إلى جفاف أسلوبي و نعتي بالعشوائية لأني خلطت على حسب زعمهم بين الموضوعية العلمية و التعصب الديني .

تسبب لي هذا الحادث بالرسوب في السنة الأولى ثانوي ، و ذالك لأني حصلت على واحد من عشرين في مادة الاجتماعيات بالإضافة إلى حصولي على ثلاثة من عشرين في مادة اللغة الفرنسية و لكن قبل ذالك وقعت عدت أحداث كان تأثيرها عليّ أكبر من تأثير الرسوب .

الخطر لا يحيق إلا بالذين يتكلمون

بعد حادث أدونيس بأسبوع أخبرتني فاطمة بأن السيد عبد القدوس طلب منها إبلاغي عن رغبته في لقائي ، سررت بالخبر و لم أتفاجأ به .

في مدخل الزقاق المؤدي إلى بيت المرواني لفتت انتباهي سيارة سوداء مركونة من نوع مرسيدس ، تصميم جديد و لوحة حكومية ، كان طول الجدار الخارجي لبيت المرواني يعادل طول ثلاثة جداران من البيوت المجاورة له ، كان مؤلف من طابق واحد به ثمانية نوافذ مختلفة الأحجام .

استقبلتنا صفية المرواني ، بدت أقل شحوبا من المرة السابقة ، لمّا توسطنا بهو المنزل وجدنا عادل و منير يهمّان بالمغادرة بعد أن أجهزا على إبريق من الشاي و شيء ما آخر كان في الصحن الذي بدَ فارغا ، فوجئ الاثنان لقدومي و سأل عادل صفية فأخبرته أن السيد عبد القدوس طلب لقائي ، اقترب مني و هو يضحك و قال :

– سيد النصر أو الخسارة تحت المجهر .

قلت :

– ماذا ؟

لم يجبني و التفت إلى منير و قال :

– هل تظنه يصلح ؟

اقترب مني منير بدوره و كان شابا أبيضا طويل القد ذو شعر أسود و ناعم و عينان سوداوان خاليتان من أي بريق ، .أمعن النظر فيّ بشرود ثمّ قال :

– هل تعرف ماذا قال ديدرو يا عادل .

– ماذا قال ؟

– قال (إنّ الخطر لا يحيق إلا بالذين يتكلمون).

– إذا كان الأمر كذالك فهو يصلح .

ردّ منير و هو يتجه صوب الباب :

– أمّا أنا فأفضل الصمت .

قال عادل و هو يتبعه :

– و أنا أيضا و لذالك فنحن لا نصلح يا صديقي .

وخرجا و هما يقهقهان بصوت عال .

أخبرتنا صفية أن السيد عبد القدوس يستضيف صديقا له ، و انه سيفرغ بعد قليل ، و قامت بحق الضيافة شاي و مكسرات ، ظلت الفتاتان توشوشان طيلة عشرة دقائق و لمّا انتبهتا لشعوري بالحرج سكتتا ، و استأذنت فاطمة في الانصراف متعذرة بالأشغال المنزلية التي تنتظرها ، قالت صفية بعد خروج فاطمة :

– إذا فأنت هو شعيب وريث آدم .

– ما معنى ما قاله منير قبل قليل ؟

– ماذا قال ؟

– أنّ الخطر لا يحيق إلا بالذين يتكلمون .

– انه قول من رواية لديدرو عنوانها جاك المؤمن بالقدر .

أعجبني العنوان فكررته :

– جاك المؤمن بالقدر .

– هذا العنوان أما الحقيقة فجاك يطعن في القدر .

– هل يمكن أن أعرف سبب دعوة السيد المرواني لي .

– لا أعرف و لكن بالتخمين أظنك الخيار الوحيد المتاح له .

– لم أفهم ؟

– ستفهم فيما بعد .

– متى ؟

– لا أعلم ، الأمر عائد لك ، و لا أنصحك بالفهم .

– هل هذا لغز ؟

– بل تحذير مباشر و صريح ، و أنا علي يقين أنّك لن تأخذ به .

– لماذا ؟

– لديك ملكة البحث عن المعرفة .

– كيف عرفت ؟

فتح باب صغير ملاصق للمطبخ و خرج منه السيد عبد القدوس و كأنه رجل من سكان البلقان ، شعر أشقر و لحية حمراء كثة ، و شارب يحجب كامل شفته العليا ، و عيون زرقاء ناعسة ، و سمته التي لم تفارقه منذ أن عرفته و هي الإرهاق الدائم البادي عليه . وعلى إثره خرج السيد عمر بوفلاح و هو رئيس المجلس البلدي لمنطقة سباتة ، و هو من سيكشف لي فيما بعد بعض الجوانب المظلمة لعائلة المرواني .

بعد أن شيع السيد عبد القدوس ضيفه دخل مباشرة إلى المرحاض و منه إلى الغرفة المجاورة للمطبخ ، ثم و كأنه انتبه أخيرا لوجودنا ، قال من داخل الغرفة :

– اتبعني يا شعيب .

قبل أن أمتثل للأمر نظرت إلى صفية فوجدتها مركّزة بصرها عليّ باهتمام متفرسة في ملامحي . كانت تلكم الغرفة فارغة إلا من حصير ، تحوي بابين ، الباب الذي دخلت منه ، و آخر مقابل له فتحه السيد عبد القدوس و غاب خلفه من غير أن ينزع المفتاح من القفل ، كانت مساحة الغرفة الثانية حوالي ثمانية أمتار مربعة ، تحوي عددا كبيرا من الكتب وضعت مباشرة فوق الحصير ، دون أي رفوف ، وقد وضع بعضها فوق بعض ، و كان يصل علو بعض الصفوف إلى متر ونصف .

قبل أن أنتهي من استكشاف الغرفة انتبهت إلى السيد عبد القدوس ينظر إليّ و هو جالس في الزاوية البعيدة للغرفة على كرسي انتزع من سيارة ما ، موضوع فوق صندوق خشبي . أشار لي إلى كرسي من البلاستيك أمامه كالذي يستعمله أصحاب المقاهي التي بالأسواق الأسبوعية . و من دون أي مقدمات و كأننا في مقابلة توظيف .

– هل تعلم سبب رغبتي في لقائك ؟

– ربما الأسطر التي صفعت بها الأستاذ الخاول .

– أظنها كانت رمية من غير رام ، و لكنها ليست السبب .

– و ما السبب ؟

– السبب هو أني أريد أن أحاول مرة أخرى .

– كلامكم يا سيد عبد القدوس كله مشفّر .

– هذا لأننا نحاول قول ما لا يجب أن يقال .

– و ما الذي يمنعكم من القول ؟

– مانعان ، أحدهما هو وجود من لا يريدنا أن نقول و الثاني و هو آفة العصور ، أنه لا يوجد من يصدق ما نقول .

– العصور !

– العصور الممتدة من آدم إلى هذه اللحظة التي نعيشها الآن .

– أعتذر منك سيد عبد القدوس ، و لا أحب أن أخيب آمالك ، و لكن يجب أن أنبهك إلى أني غير مؤهل لأتكلم بالألغاز مثل أفراد أسرتكم الكريمة ، فأنا شخص قروي بالكاد قرأ بعض الكتب التي كانت تقع في يده من هنا أو من هناك ، و لأني أحترمك فإنه يلزمني أن أكون معك صريحا و أخبرك أنه منذ دخولي منزلكم و أنا أشعر بالضيق من فصول هذه المسرحية المبالغ فيها . يا سيد عبد القدوس منذ أن كنت قادرا على صياغة الكلام و أنا أترجم أفكاري و مشاعري إلى كلام يعبر عن أفكاري و مشاعري بعفوية و ببساطة و هكذا أحب أن يكلمني الناس .

لم يقاطعني و انتظر إلى أن أنهيت كلامي ثمّ قال :

– أن تعبر عن مشاعرك و أفكارك بالكلمات المناسبة ملكة نادرة ، و لا تنتظر من الذي لا يملكها أن يعاملك بالمثل ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، أعرف أنك قشة و أن أتمسك بقشة أفضل من أن أتمسك بلا شيء .

شعرت بندم مفاجئ على قبولي للدعوة ، و وقفت استعدادا للمغادرة ، و هذا في نظري كاف لأبدي استيائي من هذه المقابلة السيئة ، قلت :

– صحيح فالقشة و إن كانت قشة فهي شيء ، و لكني أرفض أن تتمسك بي ، دمت بخير سيد عبد القدوس.

لم يلح عليّ بالبقاء و بدَ هو الآخر راغبا في انصرافي ، قال وهو يمسك صدغيه بأصابع يده اليمنى، الإبهام في جهة و باقي الأصابع في الجهة الأخرى ، و كأنه أحسّ بصداع مباغت .

– كانت مقدمة لا بأس بها ، شرفت بلقائك يا بني و أرج منك تكرار الزيارة في أقرب وقت .

نظر إلي و ابتسم ثمّ تابع :

– يمكنك استعارة بعض الكتب إذا أرددت ذالك .

أفرحني عرضه و تبخر انزعاجي من الزيارة ، قلت :

– هل يمكنني استعارة الكتاب الذي اقتبست منه مقولة الدهماء لا يشعرون بالشيطان حتى و لو أمسك بمخنقهم .

– فاوست .

– و ماذا تعني فاوست ؟

– مسرحية فاوست ، إنها على ما أظن هناك ، يمكنك أخذها .

– و هل يمكنني أخذ هذا الكتاب الذي يليها ؟

– موبي ديك ، أجل .

خرجت من عنده مسرورا بالكتابين ، وجدت صفية تقف على باب المطبخ ، تعجبتْ من قصر مدة الزيارة ، و قالت بعد أن اطلعت على عنواني الكتابين :

– ها قد بدأنا من جديد ، كان الكيخوطي أعقل من أبي بكثير ، فقد صارع الطواحين الهوائية مرة واحدة ، أمّا أبي فلا يزال يصارعها مرارا .

فرحتي بالكتابين جعلتني أتفادى التعقيب على قولها أو الاستفسار عن مقصدها ، ما دامت الزيارة لم تخل من فائدة ، و هي الآن بين يديّ فليتكلم آل مرواني بالألغاز كما شاءوا .

هل انتهت رحلتك مع يوهان

بعد ذالك وقعت في حي كولومبيا بعض الأحداث المتتالية و المتسارعة ، فقد قام أفراد من عائلة البركي بامتهان تجارة الحشيش في الجهة الشرقية من الحي ، و عائلة البركي هذه تنحدر من منطقة زاكورة ، و جل سكان الجهة الشرقية لحي كولومبيا ينحدرون من تلك المنطقة .

كان سفيان البركي أول من بدأ بالتمرد على سيطرة القطط على تجارة الحشيش في الحي لحوالي ثمانية أعوام ، كان في السابعة و العشرين من عمره ، و كان محاطا بأفراد من عائلته من بينهم عمه مصطفى البركي و هو في نفس عمره تقريبا ، و ابني أخته المحجوب و إبراهيم و كنيتهم أيضا البركي و إبراهيم هذا هو من وجه الطعنة القاتلة التي أودت بحياة عادل ، كما سنذكره في ما بعد .

وقعت مناوشات بين الطرفين كان الخاسر فيها دوما هم آل بركي ، في إحدى الجولات كان سفيان يتاجر مع أحد زبائنه قبيل المغرب حين سمع المحجوب يصيح فيه .

– احذر، احذر .

و قبل أن ينتبه كان منير قد بتر أذنه اليمنى بضربة سكين مباغتة من الخلف ، و لمّا همّ بإخراج سكين من حزام بنطاله ليدافع عن نفسه ، وجد نفسه مطروحا أرضا بسبب لكمة جنونية من أحمد المرواني ، حاول آل بركي الدفاع عن سفيان فاعترض طريقهم مجموعة من الشباب المرافقين لآل مرواني و كان من بينهم مبارك ابن عمتي ، اختلط الحابل بالحابل و لم يعد يرى لنابل أثر ، و تعالت صيحات النساء في كامل الجهة الشرقية للحي ، أمّا باقي مناطق الحي فكانت تصدّر الناس إلى الجهة الشرقية حفاة و حاسرين ، و الكل يجري و يولول ، شهد عادل اللحظات الأخيرة للعراك ، و كان جهده منصبا على تخليص سفيان البركي من قبضة أحمد و منير اللذان ما تركا في جسمه مكانا إلا و أدموه ، شرع بعض الرجال يصيحون الشرطة قادمة ، الشرطة داخل الحي ، فرّ كل المتقاتلين في اتجاهات مختلفة ، و ظل سفيان البركي ملقى في ساحة التقاتل هو و شاب آخر من المرافقين لآل مرواني ، تلقى طعنة من مصطفى البركي نقل على إثرها إلى المستشفى ما بين الحياة و الموت .

خرجت عمتي لمّا سمعت الصياح حافية ، و كنت على إثرها بعد أن انتعلت حذائي ، شهدت اللحظات الأخيرة من العراك ، حضرت الشرطة بعد نصف ساعة من انتهاء التقاتل ، و الصيحات التي أخبرت بقدومها من قبل كانت حيلة مكشوفة و فعّالة لفظ الشجار .

أسندت ظهري إلى حائط بعيد عن تجمعات النّاس و أخذت أردد بصوت مهموس .

– في شجار مثل هذا لا يوجد نصر ، و إنما خسارة و خسارة ، يبد أنّ آل مرواني لا يقولون ألغازا .

في تلك الليلة ثمّ القبض على مبارك ابن عمتي و المحجوب البركي و قد حكما بعد ذالك بستة أشهر سجنا نافذة ، في حين ظل الباقون ملاحقون أمنيا ، و في تلك الليلة أيضا أدركت أني لم أرى إلا نموذجا

مصغرا لمظاهر سلطان غريزة القطيع ، و تكونت عندي بعض الانطباعات الخاطئة عن علاقة الكلمة بالسيف توازيا و تقابلا ، و سنرجع لهذا بالتفصيل في المحطة الرابعة من رحلتي .

تكفل عادل المرواني بمصاريف علاج الفتى الذي تلقى الطعنة و بأتعاب المحامي الذي دافع عن مبارك أمام المحكمة ، و كان خروج حمزة المرواني من السجن نهاية تمرد آل بركي و ذالك إلى حين .

الشبه بين حمزة و أحمد كان كبيرا ، غير أن حمزة كان أجسم منه ، و كان مدمن خمر كثير الشجارات ، معظم ضحاياه بعد انتهاء مشكلة آل بركي شباب من خارج الحي قدموا لاقتناء الحشيش ، و رغم تسلطه و تجبره فقد كان حمزة مصابا برهاب الوحدة . و لا يستطيع البقاء بمفرده و خصوصا في الليل ، و حكى لي مبارك أنّه كان إذا أراد دخول المرحاض يطلب من أصدقائه الحديث بصوت مرتفع ، و قد علمت فيما بعد أن سبب رهابه يعود إلى أنه شاهد أمه السيدة خديجة أمزار و هي ترتفع في الهواء من تلقاء نفسها ثمّ فصل رأسها عن باقي جسدها .

قصدت منزل آل مرواني بعد ثلاثة أيام من موقعة الجهة الشرقية كما أحب أن أسميها ، و كان قد مضى تسعة أيام على زيارتي الأولى لسيد عبد القدوس ، كنت قد انتهيت من قراءة مسرحية فاوست في اليوم الأول ، أمّا موبي ديك فكانت مرهقة و لم أستطع إتمامها إلا بعد ثلاثة أيام .

فتحت لي فاطمة الباب ، و كانت تساعد صفية في الأعمال المنزلية ، فبسبب مرض صفية لم تكن قادرة على القيام بأشغال البيت بمفردها ، لم يكن بالبيت إلا الفتاتان و السيد عبد القدوس ، فقد صدرت في حق عادل و منير و أحمد مذكرة بحث ، و هذا ما جعلهم ، لا يعرجون على البيت إلا نادرا و في أوقات غير محددة و لمدة قصيرة .

في ذالك اليوم بدت صفية شاحبة كما رأيتها أول مرة ، و رغم أنني أعلم أنها في الثانية و العشرين من عمرها فقد كنت أنظر إليها على أنها في الأربعين أو أكثر ، لم يكن هناك ما يدل على أنّها حية إلا لون شفتيها الوردي و بريق عينيها .

صفية بئر الأحزان ، لم تحاول فتح فمها لتشكو ، فقد كانت تعلم أن الشكوى تعني كشف الأسرار، لم تعاتب أباها يوما كما فعل إخوتها مرارا ، كيف تعاتبه على إرث ، توارثته أسرته لآلاف السنين و رفض هو توريثه لأبنائه ، أليس هو صاحب الإرث ، إذا فليفعل به ما يشاء . لم تحمله يوما المسؤولية عن موت والدتها ، رغم أنها كانت حينذاك في العاشرة من عمرها فقط إلا أنها كانت تعلم أنّ والدتها كانت تنتظر الموت و مستعدة له . صحيح أنها كانت أصغر آل مرواني سنا إلا أنها كانت أكثرهم اتزانا في مسألة إلقاء اللوم على السيد عبد القدوس ، فقد كانت تفخر بشجاعته في اتخاذ قرار الانشقاق عن الشجرة الملعونة ، و مع ذالك فقد كانت تحس في قرار نفسها بأنه لو أجاد التصرف لاستطاع المحافظة على أسرته . لمّا رأتني ابتسمت و قالت :

– هل انتهت رحلتك مع يوهان ؟

– ومن يكون يوهان هذا ؟

– الدكتور يوهان فاوست .

– اسمه يوهان !

– هذا ما قالوه .

– أليست أسطورة ؟

– إنّه شخصية حقيقية وجدت و عاشت و لا أحد ينكر ذالك .

– لا ليس شخصه و إنما سيرته هي الأسطورة .

– لقد علم غوته أنّك ستقول ذالك ، و لهذا كتب لك (الدهماء لا يشعرون بالشيطان حتى و لو أمسك بمخنقهم) .

– غوته قال الكثير .

– و سكت عن الكثير .

– كيف عرفتِ؟

– هكذا هو الأدب .

– و ماذا عن موبي ديك ؟

– لقد كان إسماعيل هو الناجي الوحيد و لهذا رمزية تبين عبقرية ملفل .

– لم أستخلص ذالك ربما عليّ قراءة الرواية مرة أخرى .

– لا أنصحك بأن تقرأ رواية مرتين .

– لماذا ؟

– سوف تكرهها .

– الأسلوب الذي كتبت به فاوست يجعلني أعيد قراءتها دون أن يتغير انطباعي الأول عن المسرحية .

– ومع ذالك فقد استطاع ملفل قول ما لم يستطع غوته قوله ،اعذرني يا شعيب فقد أتعبني الوقوف ، يمكنك إتمام الحديث مع أبي في حين تعد لكما فاطمة الشاي، اطرق الباب قبل الدخول .

وجدت السيد عبد القدوس كما تركته في المرة السابقة ، بدَ و كأنه لم يتحرك طيلة الفترة الفاصلة بين الزيارتين ، لمّا رآني أشار لي إلى الكرسي البلاستيكي ، أعدت الكتابين إلى المكان الذي أخذتهما منه و جلست أنظر إليه ، لم يكن يقرأ أو يكتب أو يأكل أو يشاهد التلفاز أو يستمع للمذياع أو أيّ شيء، كان جالسا لا غير ، و هكذا كان دائما يجلس لساعات طوال دون أن يأتي بأي حركة . لمّا أبطأ في المبادرة بالكلام قلت :

– أظن أن صفية معجبة بمحتوى موبي ديك .

– صحيح فملفل حاول أن يكون صادقا .

قلت في نفسي ها قد بدأت الطلاسم .

– و ما الذي يمنعه من أن يكون صادقا ؟

– لأن فن الرواية أسس على الكذب .

– هل هذا يخص ملفل وحده ؟

– أعتقد أن تولستوي جعله خاصا بملفل .

– وما الذي دفع تولستوي إلى هذه النتيجة .

– لأن تولستوي حاول هو أيضا أن يكون صادقا .

– لا أعرف إلى ماذا ترمي ، وأظن أن سبب موقفكم من موبي ديك يعود إلى كونها حوت معلومات حقيقية عن تاريخ صيد الحوت و أنواعه و أماكن تواجده ، و كل تلك التفاصيل الدقيقة .

– بل يرجع إلى الإشارة لثورة ذالك المخلوق الضعيف المتكبر الحقود المتمثل في شخص آخاب على قدرة الخالق الواحد المتمثلة في شخص الحوت الأبيض، و تلك التفاصيل التي تكشف الكثير .

– لم أنتبه لذالك .

– يا بني لم اعد أهتم لأمر الكتب منذ زمن بعيد ، وخاصة الروايات، فدعنا منها و أخبرني عن مسعاك.

– لعلك تقصد أهدافي .

– احذر يا شعيب أن تُسلب إرث آدم و تفقد القدرة على تسمية المسميات بأسمائها الصحيحة .

– إذا كنت تقصد بالمسعى الوجهة و الغاية فإني في الوقت الحاضر لا أسعى لأي شيء .

– لا شيء تعني العدم ، و أنت موجود وتسعى إلى غاية محددة .

– لم أفهم ؟

– أنت موجود و قد ابتدأ وجودك في نقطة محددة و سينتهي عند نقطة أخرى ، و ليس أنت من اختار نقطتي البداية و النهاية الخاصتين بك ، و لكن في سيرك ما بين هذين النقطتين تكون لك مشيئة مستقلة بمجرد وصولك سن التكليف .

– هل تقصد بالمسعى نقطة النهاية ؟

– نقطة النهاية حددت مسبقا و لن تستطيع تغييرها وإنّما أقصد الوسائل التي تتخذها للوصول لتلك النقطة .

– أستطيع أن أستنتج من كلامك يا سيد عبد القدوس أن المسعى يكون بين النقطتين ، و أنّ لنا إرادة حرة في هذا المسعى .

– لا أستطيع يا بني أن أؤكد لك إذا ما كانت لنا إرادة كاملة أم لا .

– أظن أنها معضلة يصعب حلها .

– بل هي عجز عقلي و قصور معرفي يجب علينا الاعتراف به .

دخلت فاطمة تحمل مائدة صغيرة وضعتها أمام السيد عبد القدوس ثمّ خرجت لترجع حاملة الشاي و الفطائر ، وضعتهم على المائدة و قالت :

– لقد حضر السيد خليفة أمزار و هو يتحدث الآن مع صفية .

شرع السيد عبد القدوس في تقديم الشاي و لم يعر قول فاطمة أي اهتمام ، قال بعدما وضع أمامي كأس شاي و عزم علي في الأكل من الفطائر :

– يا شعيب عليك في المرحلة الراهنة أن تعرف مسعاك ...

هممت بالكلام فأشار إليّ بيده أن أسمع فسكتت ، و واصل :

– و لكي تعرف تلزمك المعرفة ، و المعرفة لا تتوفر إلا من مصادر و لكي تحصل على مصدر ، يتحتم عليك السعي إليه ، و هذا هو مسعاك في الوقت الراهن ، و قد بدأت سعيك بالفعل و لهذا أنت هنا ، أعرف أن لك من الملكات ما يؤهلك لاختصار العديد من المراحل ، لا تسألني كيف عرفت ، و لكنها الحقيقة أؤكد لك ذالك .

وضع يده على فمه و كتم التثاؤب ، ثمّ قال :

– قد أكون مصدرا هامّا يسعى إليه العديد من الأشخاص في العالم كله أشرارا و أخيارا ، و لكن بالنسبة لك لا أصلح أن أكون مصدرا في الوقت الراهن ، لأن الحكمة لا تجيز إطعام المولود حديثا لحما و يمكنك أن تبدأ من نفسك كمصدر أول ، فيكون سعيك إلى نفسك خطوة أولى و سعيك بنفسك خطوة ثانية و سعيك لنفسك خطوة ثالثة . سعيك إلى نفسك يتيح لك معرفة من هو شعيب مودود ، وسعيك بنفسك يكشف لك ماذا يريد شعيب مودود ، أمّا سعيك لنفسك فهي المعرفة التي تبحث عنها . و هي في حد ذاتها وسيلة و ليست غاية .

تثاءبت بدوري ، فسكت إلى أن انتهيت من كتمها ثمّ واصل .

– الخطوات الثلاثة هذه تعتبر مصدرا واحدا من مصادر المعرفة العديدة ، و أعرف أن توجيهي هذا تطفل عليك ، و السنين ستثبت لك ، أنك لا تصلح أن تكون في الصفوف الخلفية و حينها ستشكر تطفلي .

لمست في كلامه مبالغة واضحة و تعالما سافرا ، و هذا ما دفعني إلى سؤاله عن عمله السابق . صمت طويلا حتى ظننت أنه لن يجيب ثمّ أشار إلى بضعة كتب كانت بالقرب مني بحوالي المتر ، أحضرتها و وضعتها فوق ركبتي و شرعت أمررها الواحد تلو الآخر .

(الفلاسفة العرب ما بين حمل النقل على العقل و حمل العقل على النقل ابن رشد نموذجا تأليف الدكتور عبد القدوس المرواني) ،(كارل ماركس و سجموند فرويد و تقاسم إرث مزدك مناصفة تأليف الدكتور عبد القدوس المرواني) ، (فولتير بساطة التفكير و فخامة التعبير بقلم الدكتور عبد القدوس المرواني) ، (كولن ولسون عندما تختلط الفلسفة بالأدب و الأدب بالخرافة تأليف الدكتور عبد القدوس المرواني أستاذ الفلسفة بجامعة محمد الخامس) .

راجت في ذهني مجموعة من التساؤلات المحيرة ، و استطعت كبح فضولي ، قلت :

– هل أستطيع استعارتها ؟

– لا يمكنك .

أعددتها إلى مكانها و لم أعرف حينذاك السبب الذي جعل السيد عبد القدوس يرفض إعارتها لي ، و قد تبين لي السبب فيما بعد ، دخل خليفة أمزار خال صفية ، كان يرتدي جلبابا تقليديا أحمرا ، كان في مثل عمر السيد عبد القدوس تقريبا ، قصير القامة و بدين يملك وجها بشوشا يحرص على حلقه دائما ، مع أنف أفطس و نظارات طبية . كان نائبا سابقا عن حزب التضامن الاشتراكي و ظل يشغل منصب رئيس معهد الطليعة للدراسات الجيوسياسية للدول شمال إفريقيا إلى حين وفاته، و ابنه هشام أمزار كان رفيق دربي في المحطة الثالثة من رحلتي ، و كان يبكي كلما تذكر وصية والده ، و قد أسرّ لي في أحد المرات أنّ والده قتل ، و لم يمت كما يظن الناس .

صافحني بوجه بشوش و ابتسامة عريضة و مدّ يده إلى السيد عبد القدوس و هو يقول :

– يا صديقي العزيز هناك لجنة خاصة في لندن تدرس ملفّك الآن ، و كلما تحركت أكثر كلما سحبتك الرمال المتحركة أكثر .

نظر إلي السيد عبد القدوس و قال :

– يمكنك استعارة الكتب التي ترغب في قراءتها .

أغنى تلميحه عن التصريح ، فأخذت كتابي البخلاء للجاحظ و صيد الخاطر لابن الجوزي ، ثمّ عرجت على المكان الذي أعدت إليه فاوست وموبي ديك وأخذت روايتي الخميائي والغريب ثم غادرت .

انصرف الشهود

في مساء ذالك اليوم زارنا عبد الكبير مودود أصغر أعمامي ، ظننتها في بادئ الأمر زيارة عادية ، و عندما جلسنا على مائدة العشاء أخبرتني عمتي بضرورة استعدادي للسفر ، لأن هناك مشكلة عائلية تستلزم حضوري ، و لمّا استفسرت عمي عن الأمر أوضح لي أن المسألة لا تستدعي القلق ، و قد أخبرني بعد أسبوع من ذالك أنه لم يخبرني عن تلكم المعضلة عندما كنّا بالبيضاء مخافة أن لا آتي معه إلى القرية و هذا ما أكدته له .

كانت عمتي نعيمة امرأة عاقلة جلدة تقوم بدورها في تدبير شؤون المنزل كربة بيت بالإضافة إلى قيامها بإعالة الأسرة ، و ذالك منذ أن أصبح زوجها السيد ميلود عاجزا عن العمل بسبب تعرضه لحادث قبل سنتين . كانت تتوجه كل يوم اثنين إلى سوق القريعة و تشتري بالجملة ملابس نسائية متنوعة ، أمّا باقي أيام الأسبوع فإنها تقوم في النصف الأول من النهار بالطواف على بيوتات حي كولومبيا و الأحياء المجاورة له حاملة بضاعتها ، و تظل ملازمة للبيت بقية اليوم و غالبا ما تزورها بعض زبوناتها إمّا بقصد الشراء أو الأداء أو التوصية على بضاعة بعينها ، أو لأسباب أخرى . قالت لي و أنا أودعها صبيحة ذالك اليوم :

– القرار يعود لك ، و أن لا توافق أباك اليوم خير من أن تلومه غدا .

وصلنا إلى القرية وقت الظهيرة ، و كان كل شيء يبد طبيعيا باستثناء تلك الوشوشة التي صدرت من النسوة اللاتي مررنا بهنّ في وسط القرية ، لم نجد في منزلنا سوى جدتي من أمي السيدة حفيظة العيادي التي لم يكن أحد منا يعرف عمرها بالتحديد و كل ما يُذكر عنها هو أنها كانت يافعة عندما عاد الملك الراحل محمد الخامس من منفاه . بصعوبة كبيرة استطعنا أن نستبين منها أنّ الجميع في بيت أكبر أعمامي السيد العربي .

اجتمع معظم أفراد عائلة مودود في بيت عمي العربي ، و بمجرد دخولنا قال مروان ابن خالتي سمية و صديق طفولتي :

– ها قد وصل العريس .

ضربته أمه بين كتفيه و انتهرته بشدة ، قبل تلك اللحظة كان تفكيري يسافر جيئة و ذهابا بين عبد القدوس المرواني و ماذا يمكن أن يكون ذالك المشكل العائلي ، و لكنّ كلام مروان حذف السيد عبد القدوس من تفكيري تماما ، فصافحت جميع أفراد العائلة تباعا حتى الأطفال الصغار . ثمّ أخذت مكاني في المجلس و توجهت بكلامي مباشرة إلى والدي محمد مودود :

– ما الذي يحصل ؟

لم يجب ونظر صوب أخيه العربي ، كان عمي العربي أغنى أفراد آل مودود ، فقد امتهن التجارة و لم يكتفي بالفلاحة كما فعل أبي و باقي أعمامي ، كان يملك شاحنتين من نوع ميتسو بيشي يعمل عليهما ابنيه عبد الغني و عماد و هو أصغر أبنائه ، يكبرني بسنة ، أمر عمي النساء أن يغادرن المجلس ففعلن

إلا أمي ظلت جالسة في مكانها ، أصرّ عمي على أن تخرج ، و فور خروجها شرع في إيضاح سبب استدعائي ، و شرح لي المأزق الذي تمر به عائلة مودود عامة و أسرتي خاصة . فقد حدث قبل شهر أن دخلت أمي في تلاسن مع حفيظة ابنة منصور أشقير ذات الستة والعشرين سنة ،بسبب رمي النفايات في أرض تملكها عائلة أشقير ، فتطور الأمر إلى شتائم و تبادل للقذف ثمّ اشتباك بالأيدي ، ثمّ وقعت المصيبة . فقد قامت أختي الكبرى لطيفة برمي حفيظة بحجر فقأ عينها اليسرى ، و قبل أن يصل رجال الدرك قام زوج أختي عبد الغني مريوش بتهريب زوجته إلى مدينة الجديدة و بالتحديد عند أخته المتزوجة هناك ، و نظرا للعداوة القديمة بين عائلة مودود و عائلة أشقير فقد حضر إخوة حفيظة من الدار البيضاء ، بالإضافة إلى بعض أبناء عمومتها ، و كادت تقع شجارات دامية بين أفراد العائلتين لولا تدخل إمام المسجد و بعض أعيان القرية الذين استطاعوا الجمع بين العربي مودود و محمد أشقير و هو خال حفيظة و ابن عم والدها ، و كان موظفا بالمجلس القروي و يحظى باحترام الجميع .

هدأت النفوس و ذالك بعد أن توصلوا إلى ثلاثة حلول يتم اختيار أي واحد منها تتفق عليه العائلتان ، الحل الأول أن يترك الأمر للقضاء و يتوقف آل أشقير عن التحرش بآل مودود ، و الاقتراح الثاني تعويض مالي تدفعه عائلة مودود لمنصور أشقير والد حفيظة يتم بموجبه تنازل حفيظة عن حقها في متابعة لطيفة قضائيا ، أمّا الاقتراح الثالث فهو تزويج حفيظة من أحد شبان عائلة مودود و في المقابل تتنازل عن حقها في المتابعة القضائية .

كان هذا ما اتفق عليه الرجال ، أمّا الاختيار فقد سيطرت فيه النساء ، ففي الوقت الذي كانت نساء آل أشقير يقلن إن لم يكن الحل الثالث فالأول ، كانت نساء آل مودود يقلن إن لم يكن الحل الثاني فالأول ، أمّا عقلاء العائلتين فكانوا يفضلون الصلح و يرفضون الحل الأول .

و أخيرا انتصرت نساء آل أشقير اللواتي كن يطمعن أن يكون العريس هو عبد الغني ابن عمي العربي ، لكنه تعذر بحجة وعده لفتاة أخرى بالزواج و يستحيل أن يخلف وعده كما قال ، و كذالك اعتذر كل عزاب آل مودود . و قد استطاعت النسوة إقناع عزيز ابن خالتي فتيحة و لكن أمّه رفضت بشراسة و استطاعت أن تثنيه عن عزمه و هذا ما كان سببا في قطيعة بينها و بين أمّي دامت إلى أن أصلحتُ بينهما في المحطة الثانية من رحلتي .

و لمّا طال الأمر على آل أشقير و ظهر التلكؤ من آل مودود ، عمد محمد أشقير إلى الاستعانة بمعارفه فتمكنت الشرطة من اعتقال لطيفة بمدينة الجديدة ، و كان ذالك قبل يومين ، و نظرا لكونها أمّ لطفلين يحتاجان رعايتها فكان و لا بد من إحضار أخيها البكر أي أنا و تقدمه لخطبة حفيظة ، حتى إذا ما رفضت أسرة أشقير ، فإنه سيسهل إقناعهم بالخيار الثاني . و هكذا علمت تفاصيل الوقائع و بقي عليّ إبداء رأيي في هل أقبل بأن أكون كبش فداء أم لا .

قال عمي العربي بعد أن انتهى من سرده :

– أعرف أنك ترغب في مواصلة دراستك ، و لكنك الولد الوحيد لأسرتك و يجب أن تقف معها في محنتها .

لم أجبه و نظرت إلى أبي لأجده مطرقا رأسه ، و هكذا يكون دائما في المجالس التي تجمعه و أخيه العربي .

قال عمي عبد الكبير :

– نحن لا نلزمك و القرار يخصك وحدك ، و حفيظة أكبر منك بخمس سنوات ، و كما تعلم فإنّ طباعها حادة و سريعة الغضب و لذالك لم يجرأ أحد على التقدم لخطبتها على الرغم من أنها ليست قبيحة ، ثمّ إنها صارت الآن بعين واحدة .

و ما إن قال عبارته الأخيرة حتى انفجر مروان بالضحك فتبعه الجميع باستثناء والدي و عمي العربي ، اعتبرت ذالك المشكل حاجزا بسيطا أستطيع تجاوزه بسهولة ، لذالك صرفت تفكيري عنه و رحت أحاول استرجاع كلمات السيد عبد القدوس محاولا تخيل الأسباب التي جعلت أستاذا جامعيا و مؤلفا للعديد من الكتب يعيش تلك العزلة المقيتة ، و كيف يعقل أن يصير أبناؤه تجّار مخدرات .

دخلت النسوة لمّا سمعن الضحك و أخذن مجالسهن ، قال عمي العربي :

– نريد أن نسمع رأيك يا شعيب فالأمر جاد و يحتاج إلى حزم و ليس كما يظن هؤلاء السفهاء .

و أشار إلى الجهة التي جلس فيها مروان و ابنه عماد ، اعتدلت في جلستي و نظرت صوب أمّي و قلت :

– لقد خضتِ شجارا خلّف خسارة و خسارة ، خسرت حفيظة عينها و خسرت لطيفة حريتها ، و لا ندري هل ستتوقف الخسائر عند هذا الحد أم أنها ستزيد ، و غدا إن شاء الله سنتوجه إلى منزل السيد منصور أشقير لنستخرج منحة من طيات هذه المحنة ، و إذا كانت مثل هذه الشجارات لا تخلف إلا خسارة و خسارة فستكون مناسبة جيدة لاختبار قوة الإرادة و قدرتها على تحويل الخسائر إلى أرباح .

بد الجميع مستغربين من كلامي ينظر بعضهم إلى بعض و لسان حالهم يتهمني بالخبل .

قال عمي عبد الكبير :

– الدراسة في الدار البيضاء جعلت من ابن أخي فيلسوفا .

قال عماد :

– أظنه يخطط للهرب .

عج المجلس بالضحك ، قلت :

– و لماذا أهرب ؟

قال مروان :

– خوفا من الأعور الدجال .

تعالت القهقهات و تناولت خالتي سمية نعلا و رمته بها فخرج هاربا و هو يضحك .

قرأت ليلة ذالك اليوم رواية الخميائي في جلسة واحدة، و لم استيقظ إلا عند الساعة العاشرة صباحا ، أعلمتني أمي أنّه تقررت زيارتنا لأسرة منصور وقت ما بعد العصر ، و أعطتني خمسمائة درهم و طلبت مني أن أشتري من البلدة القريبة بدلة تجعلني أبد أصغر من سني ، و قد فعلت عكس ذالك . استحممت بعد الغذاء ، و قرأت بعض الفصول من كتاب صيد الخاطر ، و قبيل الموعد غيرت ملابسي و حاولت أن أكون على الأكثر مقبولا . استقبلنا آل أشقير بحفاوة ، باستثناء جميعة أشقير والدة حفيظة فقد كانت متجهمة ، كان بيت السيد منصور متواضعا حاله كحال معظم بيوت قريتنا ، جلسنا في بهو ثمّ إعداده من قبل و تعطيره ، كنّا خمسة ضيوف أنا و والديّ بالإضافة إلى عمي العربي و خالتي سمية التي أصرت على المجيء معنا ، بعد حوالي خمسة دقائق من قدومنا التحق بنا محمد أشقير و زوجته السيدة سميرة أيت راوي و كانت تعمل معلّمة في قرية مجاورة .

أقسم منصور على عدم فتح أي موضوع ما لم يتم تقديم الشاي و قد أشرف على تقديمه بنفسه ، و بعد أن انتهينا من شرب الشاي قال عمي :

– لطيفة ابنتنا و حفيظة ابنتنا و ما وقع إنّما بفعل وسوسة الشيطان .

قاطعته جميعة :

– لا يوجد أي شيطان ، الإنسان هو الشيطان .

نهرها أخوها و زوجها معا ، وتذكرت السيد عبد القدوس وغوته ، (الدهماء لا يشعرون بالشيطان حتى و لو أمسك بمخنقهم)، استأنف عمي الحديث و قد بدَ مستاء ، بسبب مقاطعة جميعة له .

– ما وقع قد وقع ولا يمكننا إرجاع ما فات و نحن هنا من أجل الصلح لا التعاتب .

قال منصور أشقير :

– أنت في منزلك ، و حفيظة ابنتكم .

قال محمد أشقير .

– يا سيد العربي أي ثوب صلح تخيطونه فإننا سنلبسه دون اعتراض .

انتهزت أمي و خالتي الفرصة و حاولتا زخرفة حل التعويض المالي ، و لكن كيدهن جوبه بكيد جميعة و السيدة سميرة اللتان أوضحتا أنه إذا قضت لطيفة عقوبتها سجنا فإنّ ذالك سيكون كاف لشفاء الصدور ، وامتصاص الاحتقان الذي بين العائلتين و أن من ضربته يده لا يبكي ، و همّت النسوة الأربعة في المضي باللجاج ، و لكنّ عمي أوقفهن و قال أنه لا يقبل أن يتشرد أبناء لطيفة و لا يقبل أيضا أن تتضرر حياة حفيظة بسبب العاهة التي لحقت بها و لذالك فإنّه يتقدم لخطبة حفيظة لابن أخيه و أشار إلي نظر إليّ آل أشقير أربعتهم في نفس الوقت ، وبدأت جميعة بالتبرم في حين احمرّ وجه منصور و اكتفى بالصمت ، قال محمد أشقير :

– اعذرني يا سيد العربي ، شعيب أصغر من حفيظة كما نعلم ، و أظنه لا يزال يتابع دراسته .

قالت جميعة :

– أخذوا عين البنت و يريدون أن يعطونا هذا الصبي لنصرف عليه .

ردّت عليها خالتي ثمّ أمي ، و ارتفعت الأصوات و حضر كل من كان متواري من آل أشقير و من بينهم حفيظة التي وقفت وسط مدخل البهو و عينها الوحيدة تطير شررا و كأنها كانت تتصيد الفرصة لتنقضّ على أمي، و كل ما يمكنني أن أُقول في وصفها أنها طويلة و ممتلئة ، وبشرتها تميل إلى السمرة و أكبر عيوبها هي جدّيتها المفرطة وطبعها الحاد وغضبها السريع وعجزها عن تليين الكلام أو تلطيفه شعرتُ بالغضب ممّا قالته جميعة ، وشعرت برغبة في الثورة على العائلتين ، و انتظرت إلى حين ثمّ إسكات النساء و همَّ محمد أشقير بالكلام ،فسبقته و قلت :

– خالتي جميعة الشجار قد انتهى و لا يهمّني أمره لأنني لم أكن طرفا فيه ، ولن أكون ، و أنا هنا لموضوع مستقل و هو خطبة ابنتكم ، و الأحرى بكم أخذ رأيها ، فمن الظلم أن يسلبها آل مودود عينها و يسلبها آل أشقير إرادتها ، دعوها هي من ترفضني و ترد خطبتي ، فقدان عين لا يعني زوال كبرياء الأنوثة .

نكزت سميرة جميعة ، و نظرت خالتي إلى أمّي و هي تحرك رأسها بطريقة دائرية ، قال عمي :

– هذا هو الصواب

فوافقه منصور على الفور ، ونظرنا جميعنا صوب حفيظة و كانت لا تزال واقفة في مدخل البهو ، تغيرت نظرة عينها و صارت أكثر بريقا ، نظرت إليّ من تحت لفوق ثمّ من فوق لتحت دون أي اهتمام منها بالحاضرين و لمّا انتهت من المعاينة قالت :

– العرس قبل التنازل .

قال عمي :

– العرس يستلزم وقت و تجهيز .

قالت متجاهلة كلامه :

– ماذا قلت يا شعيب ؟

قلت :

– القران قبل التنازل أمّا العرس فسنؤخره للصيف .

قالت:

– موافقة على شرط أن تواصل دراستك هذه السنة فقط ثمّ تنقطع لتبحث عن مصدر للدخل .

قلت :

– موافق على شرط أن نعيش في منزل أسرتي .

قالت :

– اتفقنا يمكنكم مناقشة أمر الصداق و القران مع خالي و والدي .

ثمّ انصرفت .

اتفق عمي مع منصور على صداق قدره ثلاثة آلاف درهم و أراد عمي دفع المبلغ ، رفض أبي بشدة و ذهب من فوره إلى البيت و أحضر المبلغ ، و تعهد عمي بالتكفل بمصاريف العرس ، أمّا محمد أشقير، فقد تعهد بتجهيز العروس ، و قامت أمّي و خالتي و دخلتا مطبخ آل أشقير و ساعدتا في إعداد العشاء ، فقد ثمّ استدعاء ستة عشرة رجلا من ساكنة القرية بالإضافة إلى إمام المسجد ليكونوا شهودا على زواجي من حفيظة إلى حين يتيسر إبرام عقد رسمي ، و هكذا صرت زوجا تلك الليلة.

بعد أن تعشينا و انصرف الشهود أخبرتني جميعة أن حفيظة ترغب في محادثتي ، ذهبت إليها و كانت تنتظرني في إحدى غرف البيت النائية ، أخبرتني أنها تريد مني أن أدخل بها تلك الليلة ، تعجبت ، و سألتها عن سبب طلبها ، فقالت أنها تريد أن تثبت لي أنها لا تزال بكرا و تتيقن هي أنني قادر على أن أكون زوجا ، استفزتني صراحتها ، وأخبرت أمّي بالأمر ، رفضتْ بداعي أن الأمر يحتاج لإعداد و تجهيز ، لكنّي خيرتها ما بين أن تروح حفيظة معنا أو أبقى أنا معها .

في الساعة الحادية عشرة ليلا جهزت أمي و خالتي غرفة نومي على عجل ، و في الصباح الباكر استيقظت أنا و حفيظة و ظللنا ملازمين للفراش و لم نغادره إلا بعد أن طرقت علينا أمي الباب للمرة السادسة .

إنّها الحقيقة رغم غرابتها

بعد عشرة أيام من زواجي عدت إلى حي كولومبيا ، و قد حدثت بعض الأمور الطريفة في تلك الفترة قد أعود لذكر بعضها فيما بعد ،أمّا سبب عودتي لحيّ كولومبيا فلم يكن التعذر بإتمام الموسم الدراسي إلا عجزا مني عن الإفصاح بالسبب الحقيقي لعودتي ، فقد عدت للبحث عن شيء فقدته في منزل السيد عبد القدوس ، لا أعرف ما هو ، لكنّي عدت من أجله .

في اليوم التالي لقدومي استدعت الشرطة عمّتي للتحقيق معها في أحداث جريمة وقعت عندما كنت في القرية ، فقد حدث أن توفيت جارة لها في عقدها الرابع بعض صراع طويل مع مرض السرطان ، و أشرفت بعض النسوة ومن بينهن عمتي على تغسيلها و تكفينها ،و قبيل أن يتم حملها إلى المقبرة حضرت أختها و كانت تسكن في مدينة سلا ، و أصرّت على أن ترى جثمان أختها قبل أن يتم وضعه على النعش، و لمّا كشفت عن وجهها و جدت فمها قد تمّت خياطته بخيط أبيض رفيع ، صرخت و أخبرت الحاضرين و أمر إمام المسجد بإبلاغ الشرطة بعد علمه بالخبر .

حضرت الشرطة و فتحت فم الميتة ، و وجدت داخله طلاسم و صور لمجموعة من الأشخاص غير المعروفين ، اعتقلت الشرطة النسوة المتهمات ، و سرعان ما اعترفت الفاعلة التي حكم عليها لاحقا بسنة و ستة أشهر سجنا نافذة ، و ظلت الأخريات عرضة للتحقيق بضعة أيام بعد الحادث و من بينهن عمّتي . وقد علمت أنّ بعض تلك الصور تعود لأناس أجانب من جنسيات مختلفة ، و أنّ الفاعلة تقاضت مبلغ خمسة آلاف درهم لتقوم بذالك الفعل ، أمّا من استأجرها فلم يذكر اسمه في القضية و ظلت تروج بعض الشائعات على أنه أجنبي يقطن بحي الحبوس في حين قال آخرون ان مستأجرها شخصية حكومية بارزة .

في منزل آل مرواني لا شيء يعلو فوق سمة السكون ، كل شيء ساكن ، البيت و أثاثه البسيط ، صفية و هدوئها العميق ، السيد عبد القدوس و جلوسه الدائم ، عالم مختلف عن العالم الذي جئت منه ، عالم لا يتأثر لا بسرّاء و لا بضرّاء ، لا تدخله هموم و لا تمسّه سعادة ، لا شيء غير الرضا التام و الاستسلام الكامل .

هنأتني صفية على زواجي ، فقد أخبرتها عنه فاطمة ، حدثتها عن الأحداث التي أنتجت ذالك الزواج فضحكت وقالت :

– لقد أفسدت مساعي علقم ، و أظن أن خربر سيصلبه .

– و من هذان ؟

– شيطانان الأول قرين و الثاني وكيل دائرة .

– أين تعرفتِ عليهما ؟

– ابحث عن سي اس لويس و سيعرفك عليهما .

– و أين أجد سي اس لويس هذا ؟

– تجده في مكتبة أبي .

– مع غوته ؟

– في الجهة الأخرى .

– في الجهة الأخرى من المكتبة ؟

– في الجهة الأخرى من المعركة .

– أيّ معركة ؟

– المعركة التي لا يشعر بوجودها عامّة الناس .

– هذا لأنّها لا تعنيهم .

– كيف لا تعنيهم وهم طرف فيها ؟

– و هل أنا في معركة الآن ؟

– أجل .

– معركة لا يوجد فيها منتصرون و إنّما خاسرون و خاسرون ، أليس كذالك ؟

– بل معركة فيها فائزون و فيها خاسرون .

– و متى أستشعر خطر هذه المعركة ؟

– عندما تشعر بوجود الشيطان .

– لا أستطيع فحواسي قاصرة .

– الحواس التي تقصد يشترك فيها الإنسان و الحيوان و مع ذلك فالحمار و الكلب و ربما غيرهما من الحيوانات يشعرون بالشيطان ، بل و يرونه .

– و لماذا عجزت حواس الإنسان ؟

– لأن الإنسان مخلوق أرقى من الحيوان و من الشياطين . و يستطيع تسخيرهما بسلاح العقل و العلم

– حتى الشياطين !

– حتى الشياطين ، و لكنّي أظنّ أنّ بعد سليمان عليه السلام ، لا يكون ذالك إلا في حالات محدودة و منفردة .

– و كيف أحصل على العقل و العلم ؟

– العقل ذاتي ثابت ، لا يقبل الزيادة أو النقصان ، و يقبل أن يحل أو يرتحل ، أمّا العلم فهو مكتسب ينفع مع العقل و يضر من دونه .

– هل يعني هذا أنه يلزمنا العقل و العلم معا إذا ما أردنا تسخير الشياطين ؟

– قد يسخرها من يملك علما و لا يملك عقلا و لكنّ هذا يضره و لا ينفعه .

– و ماذا عن الذي يملك عقلا و لا يملك علما ؟

– إن كان فعلا يملك عقلا فسيقوده لطلب العلم .

– و الذي لا يملك لا عقلا و لا علما ؟

– الدهماء ، و يمكن تشبيههم بالدواب ، غير أن الدواب تستطيع رؤية الشيطان كما أسلفنا .

– قصدكِ أنهم دون الدواب .

– صحيح .

– و إذا أردتُ تسخير الشيطان فأين أجده ؟

– منذ عرفتك و أنت تتسكع معه . أظن أن أبي يرغب في رؤيتك فقد سأل عنك مرارا .

وجدت السيد عبد القدوس غارقا في التفكير ، لم ينتبه لدخولي . ابتسم حين رآني ، و أشار إلى الكرسي البلاستيكي ، أعدت الكتب المستعارة إلى مكانها و جلست لأقصّ عليه هو الآخر حكاية زواجي مجملة دون تفاصيل ، و لمّا انتهيت ابتسم و قال :

– أعتقد أنّ حفيظة ستكون لك سندا في الحياة .

– أتمنى ذالك .

أغمض عينيه و وضع يده اليمنى على الشِمال ،وأسند ظهره إلى الكرسي ، و بدا كأنّه نام ، ظل الأمر على تلك الحال لمدة خمسة دقائق ، لم أفهم سبب تصرفه و بقيت أرتقب إلى أن فتح عينيه و قال :

– أظنهم اتخذوا قرار إطفائي ، لم يبقى أمامي الكثير من الوقت .

ارتبكت لمّا سمعت كلماته و شككت أنّه كان يحلم . غير أنّه أردف :

– منذ أن قتلوا خديجة و أنا أتمنى أن أحارب ضدهم و لكنّ خوفي على أبنائي دفعني إلى لزوم

الحياد طيلة فترة إقامتي في حي كولومبيا ، و قبل فترة تولدت لديّ رغبة في الانتقام منهم و لو بكشف جزء بسيط من الأسرار المتوارثة .

تساءلت في قرار نفسي إذا ما كان السيد عبد القدوس جاد فيما يقول ، و عجزت عن النطق ، و دون أي اهتمام منه بارتباكي واصل .

– لقد تناسيت أنهم يستطيعون الكشف عن الرغبات ، يا شعيب أظن أن رهطي لم يعد باستطاعتهم حمايتي .

– يا سيد عبد القدوس احكي لي ما الذي يحصل معك ؟

– لن يفيد الحكي فقد بدأنا في النهاية ، أعتقد أنهم يخططون للخروج و لذالك فإنّهم لن يتهاونوا معي أو مع غيري .

– من هم ؟ و نهاية ماذا ؟

– ليس من مصلحتك أن تعرف ، و أرج منك أن لا تعود لزيارتي إلا بعد أن أدعوك ، و أن لا تتأخر إذا دعوتك .

هممت بطرح مزيد من الأسئلة ، و لكنّي أحسست أنه لم يعد يرغب في الكلام لأنه عاد و أغمض عينيه وبقيت مترددا بين البقاء و الانصراف إلى أن قال :

– يمكنك أخذ الكتب التي ترغب فيها و تستطيع حملها .

نهضت و نفذت في الحال ، و قبل أن أخرج سألته إن كان يرغب في قول شيء آخر فقال :

– أنت تملك سلاح البيان و أظنك ستحارب لا محالة . قد أكون السبب و لكنها إرادتك ، يمكنك الذهاب يا بني و احرص أن لا تتأخر حين أدعوك .

دعتني صفية إلى شرب كوب من القهوة كانت قد أعدتها قبل خروجي من مكتبة السيد عبد القدوس وضعتُ حملي الثقيل من الكتب و جلست مجيبا الدعوة ، قالت و هي منكسة رأسها :

– لعلك تعتقد أننا عائلة مجانين .

– ليس صحيح .

– هل أخبرك أبي بأشياء قد تبدو لك غريبة ؟

– مثل ماذا ؟

– تلك الأمور التي قد يرغب في إطلاعك عليها .

– أيّ أمور ؟

– إنّها الحقيقة رغم غرابتها .

– لم يخبرني بشيء ، و لا أستعجل معرفة أشياء لا تعنيني ، و كل ما في الأمر هو أن السيد عبد القدوس إنسان مثقف ، و أحببت انتهاز فرصة زياراتي له للاستفادة منه .

رغبت في مواصلة الحديث معها لأنّي شعرت بوحدتها ، غير أني كنت لم أزل أشعر بالضيق الذي سببه لي كلام السيد عبد القدوس ، و لهذا شكرتها على القهوة و انصرفت .

فيما بعد كنت دائما ما أقضي السبت و الأحد في قريتي ، فقد صارت لي زوجة هناك . كانت أمي سعيدة بكنّتها ، فقد حملت عنها جميع أعباء البيت، و كانت لا ترفض لها طلبا و لا تخالف لأبي أمرا ، و بعد قدومها بيومين ولدت نعجة من نعاج أبي ثلاثة خراف من بطن واحدة ، و هذا ما جعل أبي يستبشر خيرا ، و فعلا فقد تحسنت أحواله المادية ، و لذالك فإنّه كان ينادي على حفيظة مبروكة ، وتقرر هذا عنده لما غابتْ لتحضر حفل ختان ابن أخيها ومات كبش له ركلته بغلة ، فظل أبي يردد و يقسم أنّه لو كانت مبروكة ساعتها في البيت لما مات الكبش ، و تصادف أنه فور عودتها ولدت نعجة أخرى خروفين توأم فلم يعد بمقدور أحد أن ينبش بكلمة تقدح في حفيظة بحضور أبي ، حتى أخواتي علمن مكانة حفيظة عند أبي فلزمن حدودهن ، أمّا أمي فكانت كلما أسدت لها حفيظة خدمة ترضتْ على أختي لطيفة .

بعد عشرين يوما من زيارتي الأخيرة لبيت القطط ، كنت عائدا للتو من القرية حين استوقفني منير و عادل ، سألت :

– ما الأمر ؟

قال عادل :

– نريد منك خدمة .

ثمّ التفت صوب منير وقال له :

– يجب أن يعلم أننا لم ننساه .

قال منير :

– اسمع يا شعيب، نريد منك أن تقوم بزيارة الحسين شرواط في السجن و تبلغه ما سنقوله لك .

– و من يكون الحسين شرواط ؟

قال منير :

– إنّه والدي .

أو لم يخبروك أنه يجب عليك أن لا تسأل

استفدت من المال الذي أعطانيه عادل في الحصول على إذن زيارة للسيد الحسين شرواط بعد عدة محاولات فاشلة ، نظرا لأنني لست فردا من عائلته ، و نظرا لأنه محكوم عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ ، لأنه اعترف بقتله للسيدة خديجة أمزار .

كان في الثامنة والستين من عمره ، أول شيء لفت انتباهي فيه هو شبهه بمنير ، كانت تظهر عليه الطيبة و السكينة ، و بوجود تلك اللحية البيضاء ، و الابتسامة المطمئنة يستحيل أن يصدق أيّ إنسان أنه قاتل . سلّم عليّ و ابتدأ بالكلام :

– هل أرسلك السيد عبد القدوس ؟

– أرسلني منير ابنك ، و طلب مني أن أخبرك أنّ ظروف عمله هي التي حالت بينه و بين زيارتك ، و أنّه سيزورك في أقرب وقت ممكن .

– أي عمل يا ولدي ، أعلم أنه لو جاء لزيارتي لأدخلوه إلى جانبي ، فهو مطلوب أيضا بتهم ترويج المخدرات و الضرب و الجرح .

شعرت بالحرج لافتضاح كذبتي .

– يا سيد حسين ، كل ما قلته لك صحيح باستثناء مسألة العمل ، فإنّه فعلا يتمنى زيارتك في أقرب وقت ممكن .

– هل التقيت السيد عبد القدوس ؟

– كانت آخر مرة منذ حوالي أربعة أسابيع .

– كيف تركته ؟

– بصحة و عافية .

أخذ نفسا عميقا و طأطأ رأسه ، أخبرته بالمئونة التي أحضرتها له فصرّح لي بأنه لا يهتم لها و أنه سيتصدق بها على رفقائه في السجن و قال لي أنه لم يأكل الحرام طيلة حياته فكيف يفعل بعد أن بلغ السبعين ، قلت متطفلا :

– لا أصدق أنك قتلت خديجة زوجة السيد عبد القدوس .

– أو لم يخبروك أنه يجب عليك أن لا تسأل ؟

– لا ، لم يخبروني .

– هذا يعني أنك صرت قريبا من العائلة .

– صديق .

– ما اسمك ؟

– شعيب .

– اسمع يا شعيب، قد لا ألتقيك ثانية ، وهذا ما أتمناه ، وأنا جد مسرور بزيارتك لأنك صديق ابني و كل ما أطلبه منك هو أن تخبرهم جميعا و خصوصا السيد عبد القدوس ، أنني لم أندم على قراري و أنّ ما فعلته كان واجبا و ليس تفضلا مني .

– أبشر .

– يمكنك الذهاب يا ولدي ، و رجائي الأخير منك هو أن تبلغ منير بأنني تركت وصيتي عند أخي عبد المالك .

نفذت طلب السيد حسين فيما يتعلق بأمر منير و لم تتح لي الفرصة مع السيد عبد القدوس . كنت أفكر في قطع علاقتي بحي كولومبيا ، و العودة إلى القرية لبدء مشروع صغير يتناسب مع وضعي الجديد ، غير أن رغبتي في زيارة أخيرة لمنزل المرواني كانت تحول بيني و بين التنفيذ . مضت ستة أيام على زيارتي للحسين شرواط دون حوادث تذكر إلا ما كان يقع بين حمزة المرواني ، و آل بركي . في تلك الليلة أويت إلى فراشي في ساعة متأخرة من الليل ، و ما إن أغمضت عيني حتى سمعت السيد عبد القدوس يناديني ، أفقت مذعورا ، و ظللت جالسا على فراشي إلى أن صرت مستيقظا تماما ، شعرت بعطش شديد فاتجهت إلى المطبخ و أخذت قنينة ماء و ما إن بدأت في فتحها حتى سمعت نداء السيد عبد القدوس مرة أخرى ، قفزت إلى الخلف و قلت :

– من هناك ؟ أهذا أنت يا سيد ميلود ؟

و لكن في تلك اللحظة كان صوت شخير ميلود زوج عمتي يطرب البيت بأكمله ، شربت كوب ماء و فتحت الباب الخارجي ، ألقيت نظرة خاطفة على الزقاق المظلم و هممت بإغلاق الباب قبل أن أنتبه إلى أني لمحت شيئا يبرق ، أمعنت النظر ، اقتربت مني العينان صاحبتا البريق شيئا فشيئا ، اعترتني القشعريرة و جف حلقي ، ثمّ تنفست الصعداء و قلت :

– أحمد ، هذا أنت ؟

– جيد أنك خرجت يريدك أبي حالا ، و طلب منك أن تغتسل قبل الذهاب إليه .

– هل أنت جاد ؟ هل قال لك هذا فعلا ؟

– أنا لا أمزح و يجب عليك أن تسرع ، أظن أنّ جنون أبي وصل مراحله الأخيرة .

تذكرت أن السيد عبد القدوس ألح عليّ في أن لا أتأخر عليه بعد أن يدعوني ، جهزت سطل ماء دافئ و أفرغته عليّ على عجل ثمّ لبست ملابسي و أخذت مفتاح الباب من فوق التلفاز و خرجت . فتحت صفية الباب، بدت و كأنّها كانت تبكي ، و قبل أن ألقي عليها التحية قالت ، إنّه ينتظرك أسرع .

كنت أبحث عن مفتاح الكهرباء لمّا عجزت عن تحديد مكان جلوس السيد عبد القدوس حين سمعته يقول بصوت خافت :

– لا تضئ المصباح .

تسمّرت في مكاني .

– تقدم يا شعيب لا تخف .

تلمّست طريقي إلى أن وصلت إلى الكرسي البلاستيكي ، و قبل أن أجلس قال :

– لا تجلس . هناك شيء على الكرسي خذه و انصرف .

وضعت يدي على الكرسي ، وجدت شيئا أسطواني الشكل ملفوف في قطعة قماش، حملته و قلت :

– هل أنت بخير يا سيد عبد القدوس ؟

– انصرف حالا .

تسرّب إليّ الخوف و اتجهت أبحث عن الباب و لمّا وجدته سمعته يقول :

– لا تفتح ذالك الشيء الذي بين يديك إلا بعد أن تكون مستعدا للموت و إن لم تستطع فأحرقه .

قالت صفية بعد أن أبصرت الثوب القرمزي بين يدي :

– أحتاجك بجانبي غدا .

– غدا !

– قبل طلوع الشمس أريدك هنا . أمّا الآن فيجب عليّ أن أودعهُ .

بعد مغادرتي لبيت المرواني تشوشتُ و شعرت ببرد شديد و زاد الأمر سوءا، لمّا وجدت كلبا أسودا ينظر إلى النافذة المغلقة التي تقع في مكتبة السيد المرواني ، أسرعت في العودة ، و قبل أن أغلق الباب ألقيت نظرة خاطفة على الزقاق ، و كان خاليا باستثناء كلب أسود ينظر صوب بيت عمتي . أخذت في تقليب الاسطوانة فور دخولي ، كانت ملفوفة في ثوب قرمزي اللون ، فكرت في إخراجها منه ، ثمّ تراجعت و قلت في نفسي لست مستعدا للموت ، و وضعتها في حقيبتي .

فشلت جميع محاولاتي في النوم و في الصباح الباكر ، غادرت منزل العمّة و أغلقت الباب ببطيء حتى لا أوقظهم . وجدت جميع آل مرواني جالسين و كأن على رؤوسهم الطير ،قال حمزة بعد دخولي :

– أهذا هو شعيب ؟

أجابه أحمد :

– نعم .

قالت صفية :

– ادخل يا شعيب و ألقي نظرة على أبي ، و أخبرنا هل هو بخير ؟

– ماذا يحدث ؟

قال عادل :

– سأدخل معك هيا لا تخف ؟

قال منير :

– سأرافقكما .

دخلنا المكتبة و وجدنا السيد عبد القدوس ملقى على الأرض بالقرب من كرسيه جثة هامدة و قد سالت الدماء من أنفه وأذنيه ، شعرت بالخوف، أمّا عادل و منير فقد ظهر عليهما الارتياح على الرغم من الحزن الذي اعترى وجه عادل ، بعد خروجنا تساءل حمزة :

– هل فُصل رأسه عن جسده ؟

قال منير :

– لا

قال حمزة :

– هذا جيد لنُعلم إمام المسجد .

قال عادل :

– لا ليس بعد، نحتاج إلى تنظيف الدماء التي سالت من أذنيه و أنفه .

و هذا ما قام به منير و عادل ، جلست أنظر إلى صفية و هي تبكي بصمت ، أمّا أحمد فقد نظر إلى جثة أبيه طويلا ثمّ غادر المنزل من دون أن ينبش بحرف واحد ، و لم أره بعد ذالك أو أعرف مكان تواجده إلى أن جاء ذالك اليوم الذي ارتكب فيه تلك المجزرة المروعة .

حضر الطبيب الشرعي و وقّع تصريح الدفن دون معاينة الجثمان ، و أشرف إمام المسجد و الجيران على جنازة السيد عبد القدوس . حضر خليفة أمزار و كان سندا لصفية ابنة أخته في محنتها ، أمّا أنا فقد اضطررت إلى العودة لبيت عمتي للوقوف معها في كربها ، فقد توفي زوجها ميلود في صبيحة نفس اليوم ، و تحدثوا عن دماء سالت من أنفه و أذنيه .

ابحث عن دميان

لم أخبر أحدا بتلك الوقائع التي حدثت لي ، و كنت أحاول الربط بينها للحصول على نتيجة منطقية مقبولة ، و كان يتيسر لي ذالك في كل حالة على حدا ، و لكن بجَمْعِ الحالات مع بعضها البعض كان التفسير المنطقي يبد شبه مستحيل .

رفضت صفية الانتقال للعيش مع خالها و ظلت في بيت آل مرواني تقضي معظم الأوقات بمفردها، كنت أزورها يوميا برفقة فاطمة و نبقى معها إلى ما بعد العشاء ، لم تكن فاطمة تعلم أن السيد المرواني مات بنفس الطريقة التي مات بها والدها ، و لم يكن يعلم ذالك إلا أنا و آل مرواني . دخلتُ مكتبة السيد عبد القدوس مرارا بإذن صفية و حصلت على العديد من الكتب ، و في أحد المرات وجدتها مقلوبة رأسا على عقب ، و قد بعثرت الكتب في شتى الاتجاهات ، حتّى كرسي السيد عبد القدوس وجدته منزوع من على الصندوق الخشبي ، أخبرت صفية عن حالة المكتبة فقالت أنها لا تعلم فهي لم تدخلها منذ مات والدها و ربما يكون السيد خليفة هو من فعل ذالك فقد دخل إليها صبيحة ذالك اليوم .

و كنت يوميا أخرج الاسطوانة و أفكر في حرقها و العودة إلى القرية ، و بقيت على هذا التردد إلى أن اعترض طريقي إلى الثانوية ، رجل كهل حسن الهندام ، و أبلغني أن السيد بوفلاح يرغب في الدردشة معي ، سألته من يكون بوفلاح فأشار إلى سيارة مرسيديس مركونة على بعد بضع خطوات ، عرفت على الفور الشخص الذي يمكن أن ألتقيه بداخلها ، و صدق تخميني ، فقد كان السيد عمر بوفلاح الضيف الذي كان عند السيد عبد القدوس يوم زيارتي الأولى لمنزل آل مرواني ، جلست بالقرب منه على المقعد الخلفي لسيّارة في حين ظل الرجل الكهل خارجها ، كان عمر بوفلاح في حوالي الخامسة و الأربعين من عمره طويل القامة ، أسمر اللون يبد على ملامحه الدهاء و الثقة في النفس ، كثير الابتسام ، يستطيع الكلام لساعات دون أن يتعب أو يمل ، و مع ذالك فإنه لا يقول إلا ما يرغب في قوله من توافه الأمور ، و لذالك فإنّه يجوز لنا أن نقول عنه أنّه ثرثار حازم .

– شعيب مودود الصديق الأخير لسيد عبد القدوس المرواني .

– أنا لم أكن صديق عبد القدوس المرواني و إنّما كنت و لا أزال صديق صفية ابنته .

– اعتقدت أنك كنت تجالسه قبل موته .

– لا ، لم أكن أفعل .

– إذا كنت صادقا فقد خسرت الكثير .

– هل أنت متأكد ؟

– لن تستطيع تصوّر مقدار تلك الخسارة ، لقد فقد بموته مفتاح عظيم .

– مفتاح ماذا ؟

– مفتاح مستودع الكنوز التي لا تقدر بثمن .

– هل تقصد فعلا السيد عبد القدوس المرواني رحمه الله ؟

– السيد عبد القدوس كان في ما مضى من أساطين الكواليس .

– لم أكن أعرف .

– اسمع يا شعيب . أنت لم تجالس السيد عبد القدوس إلا لأنك كفؤ لذالك ، و طريقة حديثك معي خير دليل على كفاءتك ، و لكي نختصر الطريق فإنه يسرّني أن أجيب على تساؤلاتك و تفعل أنت نفس الشيء معي ، فما رأيك أن تصدقني و أصدقك .

اصطنعت شعور الاستغراب و التعجب ، و فطن لذالك و قال :

– أؤكد لك أني كنت أسعى إلى المعرفة كما سعيت إليها أنت بلقائك للمرواني ، و لا مصلحة لي في إيذائك و لا قدرة لي على ذالك .

– سأخبرك بصدق عن بعض أسئلتك و أرجو منك قبل ذالك أن تخبرني عن المعرفة التي كنت تبحث عنها .

– هذه بداية غير جيدة ، و لكن اسمع ، كان السيد عبد القدوس فرد من عائلة كبيرة تحمل ألقابا متعددة في العالم كله ، ولكنها عائلة واحدة في الأصل. استطاع أفرادها احتكار معرفة سرية تدعى الجبت ، بها تقلدوا أعلى المناصب عبر التاريخ ، والذي يجرأ على كشف نيته في السعي لمشاركتهم تلك المعرفة من خارج العائلة غالبا ما تتم تصفيته ، و ما كنت لأجرأ على ذالك لولا أني علمت أن السيد عبد القدوس ثمّ نبذه خارج العائلة ، فتملقته زمنا و أسديت له بعض الخدمات ، و قد وعدني بأن يرشدني إلى المصدر الذي بواسطته سأنال بغيتي لكنه مات و لم يفعل .

– لا أظن أن السيد عبد القدوس يخلف وعدا .

– لقد أرسل لي قبل موته بيوم واحد رسالة مكتوب فيها (ابحث عن دميان) .

– هل قصد دميان الخاص بهرمان هيسه ؟

– بل قصد دميان الحقيقي .

– دميان الحقيقي !

– إن كنت حصلت على شيء يفيدني في سعيي فبإمكانك تحديد السعر الذي ترغب فيه .

– ربما كنت أجهل الكثير عن السيد عبد القدوس ، و كل الأحاديث التي دارت بيننا لا علاقة لها بهذه الأمور التي تدعيها .

– ألم يعطك شيء ؟

– مثل ماذا ؟

– أيّ شيء .

– لقد أعارني بعض الكتب و أعدتها إليه.

– هل تذكر عناوينها ؟

– روايات و كتب تاريخ و فلسفة و غيرها.

– لا شيء آخر ؟

– هذا كل شيء .

– إذا غيرت موقفك و قررت المساعدة فيمكنك زيارتي في أي وقت .

– أين ؟

– توّجه إلى بلدية سباتة و اسأل عن الرئيس .

هكذا انتهى لقائي الأول بالسيد عمر بوفلاح ، و قد جعلني لقائه أجزم أن كلام السيد المرواني لم يكن محض أوهام أو وساوس أنتجتها الوحدة ، وشرعت في استرجاع كل ما يمكنني تذكره من كلامه ، فكان أول ما تذكرته قوله لي : (قد أكون السبب و لكنها إرادتك) .

اتجهت مباشرة إل منزل المرواني ، كان الوقت ظهرا، فتح حمزة الباب لي بحذر و ترقب ، فقد كانت الشرطة لا تزال تبحث عن أخويه ومنير، في الداخل وجدت عادل و منير يجلسان على مائدة الطعام ، أخذ حمزة مكانه بينهما و دعاني إلى مشاركتهم ، جلست في الوقت نفسه الذي خرجت فيه صفية من المطبخ ، سألتني عن فاطمة فأخبرتها أنها ستجيء في وقتها المعتاد ، و أني عرجت لأني أنوي استعارة رواية دميان .

قال عادل :

– أنصحك أن تبتعد و أن تنسى كل كلمة قالها لك أبي .

ضحك حمزة وقال :

– هل تظن أن أبي أخطأ في اختياره لهذا النزق ؟

– للأسف أبي لا يخطأ في مثل هذه الأمور .

قالت صفية :

– لقد مات أبي و قد فعل كل ما بوسعه ليحمينا ، فلا تطعنوا فيه حيا وميتا .

قال حمزة :

– حسنا حسنا لم نقل شيئا .

أكلتُ بضع لقيمات و أخذت رواية دميان و غادرت .

يقول لك الأسياد

في زيارتي التالية للقرية اغتسلت و وضعت الأسطوانة وسط ثيابي المتسخة و حملتها معي ، كان يوم جمعة ، وصلت بعد العصر ، أخبرتني حفيظة أننا مدعوون للعشاء في بيت والدها بطلب من خالها محمد أشقير ، رفضت أمي الذهاب معنا و تعذّرت بالتعب ، أمّا أبي فكانت روحه تكاد تغادر جسده كلما غادرت حفيظة المنزل فرفض هو الآخر و طلب منا أن لا نتأخر .

في منزل أصهاري لم يكن هناك شيء غير طبيعي باستثناء الحفاوة المبالغ فيها التي استقبلني بها محمد أشقير . بعد العشاء اختلت حفيظة بأمها و أخواتها و زوجة خالها السيدة سميرة ، و بينما كان منصور يعد الشاي سألني السيد محمد :

– هل تورطت في أمر ما بالدار البيضاء ؟

– ما سبب سؤالك ؟

– أظن أنك فعلت .

– وضّح

شرع محمد يحكي كيف زاره قبل ثلاثة أيام السيد العامل برفقة شاب يبد من مظهره و من معاملة السيد العامل له أنه ذو منصب رفيع ، و كيف عمّت الفوضى جميع مكاتب القروية لزيارتهما المفاجئة ، طلب ذالك الشاب من السيد العامل أن يتركه برفقة محمد أشقير و قال بعدما صارا لوحدهما :

– لا تخف يا سيد أشقير ، إنّها مجرد زيارة عادية من أجل التعارف .

– تشرفني زيارتك سيدي و زيارة السيد العامل .

– علمت أنّك خال السيدة حفيظة زوجة شعيب مودود ، هل تتفضل و تؤكد لي ذالك ؟

– أجل سيدي ، معلومتك صحيحة .

– ماذا تعرف عن شعيب ؟

– إنّه ابن قريتنا و ترعرع بيننا ، و زواجه من ابنة أختي كان لظروف خاصّة .

– أعرف ذالك .

– هل تورط في مشكلة ما ؟

– ليس بالضبط ، الأمر يتعلق بمتاهة دخل فيها عن طريق الخطأ .

أخبرني أشقير أنه شعر بالرعب من كلامه و بدأت يداه ترتعشان ، فلاحظ الشاب ذالك و قال :

– جيد أنّ ذالك الفتى لا يثرثر كثيرا .

– كل ما أعلمه هو أنه ينوي إتمام عامه الدراسي في الدار البيضاء .

– و هذا يكفيك ، لي عندك رجاء .

– أمرك .

– أخبر السيد شعيب بأنه متى أدرك أنه لا يملك الجرأة على الاقتحام في ذالك الشيء الذي حصل عليه و أراد التخلص منه فما عليه سوى تحديد السعر الذي يرغب فيه .

أخرج السيد أشقير ظرفا من جيب قميصه و أعطاه لي بحذر شديد ثمّ قال :

– لقد أعطاني هذا الظرف و طلب مني أن أسلمه لك دون أن أفتحه . و بأن لا أخبر أي أحد بما دار بيني و بينه من حديث ، و قد فكرت بأن أستغل الفرصة و أحدثه عن سلمي الوظيفي و قبل أن أتكلم أشار لي بيده أن لا أتكلم ثم خرج ، و بعد ثمانية و أربعين ساعة صدر قرار ترقيتي .

أخذت الظرف و وضعته في جيبي ، لم يعي منصور طبيعة الحديث الذي دار بيني و بين محمد ، وفي الوقت الذي تحلّق فيه جميع أفراد أسرة منصور أشقير حول التلفاز في غرفة مجاورة نادى محمد على زوجته و طلب منها الاستعداد للمغادرة و قال لي :

– انتبه على نفسك .

– لا أعلم ماذا حدث و أظنه سوء تفاهم لا غير .

ترجتني جميعة أن نبيت عندهم تلك الليلة و كانت قد حاولت مسبقا مع ابنتها و لكنّ حفيظة رفضت امتثالا لأمر والدي الذي طلب منّا أن نسرع في العودة ، غير أني أقنعتها بأن أبي ينام باكرا و سنذهب للبيت في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ . و هكذا بتنا تلك الليلة في منزل صهري ، و في الصباح عندما ذهبنا للمنزل وجدنا أبي يتفقد مواشيه الواحدة تلو الأخرى، و كانت السعادة بادية عليه لمّا وجدها كلها بخير ، و لمّا جلست أتحدث معه في انتظار إعداد الفطور تعالت الصيحات و العويل ، فقد دخلت أمي لتتفقد والدتها حفيظة العيادي ، فوجدتها ميّتة ، و لجتُ الغرفة حيث يرقد جثمان جدتي فوجدتها متيبسة و قد سالت دماء من أذنيها و أنفها ، طلبت من حفيظة أن تحضر لي منشفة و ماء ، ثمّ شرعت في تنظيف الدماء ، أدركتْ حفيظة حرصي على إخفاء الدماء ، فقامت بإغلاق باب الغرفة و لم تفتحها إلا بعد أن انتهيت .

حضر الجنازة معظم عائلة العيادي ، و عندما كان يسأل أحد ما عن الوقت الذي ماتت فيه ، كانت أمي تقول أنها توفيت في الصباح و كان أبي يعقب عليها و يقول توفيت البارحة ليلا عندما كانت حفيظة زوجة ابني غائبة عن البيت ، و هذا كان يجعل أخواتي و حفيظة يضحكن على الرغم من أنهن أو يفترض في حالة حداد . و الصواب في المسألة هو ما قاله أبي و يتضح ذالك من الدماء المتيبسة ، و إنّما

كانت أمي تقول في الصباح حتى لا تتهم بالتقصير في رعاية والدتها ، لأنّها لم تتفقدها منذ مغرب الليلة الفائتة .

قالت لي حفيظة عندما آوينا إلى فراشنا أنّها توقعت أن يحدث أمر سيء منذ أن رأت ذالك الكلب الأسود ، سألتها أين رأته و متى ؟ فقالت أنّها رأته بعد قدومي بحوالي نصف ساعة و ذالك أنها خرجت صوب منزل عائلتها لتعلمهم بموعد قدومنا ، و عند عودتها وجدته واقفا ينظر صوب منزلنا .

فتحت الظرف الذي أخذته من محمد أشقير و لم أجد فيه غير ورقة صغيرة مكتوب عليها رقم هاتف ، دوَنت الرقم بقلم الرصاص على غلاف رواية دميان ، و أعطيت الورقة لحفيظة لتحرقها . و بعد ثلاثة أيام حضر إلى منزلنا ابن خال والدتي السيد فضيل العيادي ، تعجبنا لقدومه من فرنسا بسبب وفاة عمته ، فالمعروف عنه أنّه رجل غني تنكر لعائلته ، حتّى إنّه لم يحضر لزيارة والده حين كان على فراش الموت ، و اكتفى بإرسال المال له ، جاء في سيارة فخمة من نوع فورد ، أظن أنّه قام بكرائها و كان برفقته رجل ضخم ذو ملامح أوروبية لا يتكلم أبدا و إنّما يتلقى الأوامر و ينفذ ، قدّم التعازي لوالدتي و لخالتي سمية و نظر إلى مروان ابن خالتي و قال :

– أهذا هو شعيب ؟

قالت خالتي :

– هذا مروان ابني و أرج منك أن توّفر له عقد عمل بفرنسا .

التفت عنها و قال أين شعيب ؟ استغرب الجميع من سؤاله ، و طلبت أمّي من حفيظة أن تنادي عليّ ، صافحته فأمسك بيدي و أجلسني بجانبه و ظل يحادث أفراد العائلة برهة من الزمن ثمّ قام و شرع يودعهم و أعطى الصبيان و النساء مبالغ نقدية لا بأس بها ، ولمّا أردتُ توديعه وضع يده على كتفي و قال :

– أريد منك أن تشيعني إلى خارج القرية .

قالت خالتي سمية سيذهب مروان معكم و غمزت ابنها فقفز إلى داخل السيارة ، قال فضيل الأمر لا يحتاج فشعيب يكفي ، و نظر إلى الرجل الضخم الذي قام على الفور بإمساك مروان من ذراعه و سحبه خارج السيارة . جلست بالقرب من السائق في حين جلس فضيل و الرجل الأوربي في المقاعد الخلفية ، و بعد ابتعادنا عن القرية بحوالي ألفي متر توقفت السيارة و نزل منها السائق و الرجل الأوربي ثمّ ابتعدا عن السيارة ، قال فضيل :

– هنا يا شعيب .

قلت بعدما انتقلت إلى جانبه :

– ما الأمر ؟

– أنت أخبرني ما الأمر ؟

شعرتُ بالغضب من لهجته المتعالية و أسلوب التحقيق الذي حدثني به .

– ظننتك هنا بسبب وفاة عمتك .

– أنا لم أحضر حين مات والدي ، فكيف يكون موت عمتي سببا لحضوري الآن ؟

– و هل يمكنك أن تخبرني عن سبب زيارتك ؟

– بل أنت أخبرني عن سبب زيارتي .

– و من أين لي أن أعلم سبب زيارتك ، و إذا علمت فإنني غير ملزم بإخبارك ، و أظن أنّ عليك الذهاب حتى لا تتأخر عن موعد إقلاع طائرتك .

– كنت متيقنا أنهم لم يخطئوا .

– أرج منك أن تأذن لي في الانصراف .

– حلَلْتُ بفرنسا كمهاجر غير شرعي و أنا الآن أملك مجموعة مطاعم تعتبر من أكبر و أرقى المطاعم في أوربا كلها ، و لم أصل إلى هذه النتيجة إلى بعد جهد و مشقة لقد قمت بأعمال متعبة لن تستطيع تصورها ، أم أنك تريد مني أن أخبرك عنها ، لقد قمت بالمتاجرة بالمخدرات و بالأسلحة ، و بالأعضاء البشرية ، و بالرقيق الأبيض و الأسود و القزحي ، لقد قمت بالسرقة و التزوير و القتل و أشياء أخرى فظيعة لن تخطر على بالك ، لقد قمت بكل شيء طلِبَ مني و مع ذالك فقد ظللت في أسفل الهرم و لم أحلم يوما بأن ألتقي فردا واحدا من الأسياد أبناء الأخرم ابن قسطنطين إبن هرقل ، و بسببك تحقق حلمي ، لقد نقلت بطائرة خاصة معصب العينيين إلى مكان ما في روما لأجد نفسي أمام ثلاثة منهم بملامحهم الباردة المرعبة و نظراتهم الميتة ، و أنا هنا مبعوث إليك برسالة شفوية منهم ، فهل عرفت الآن سبب انفعالي ؟

– مبعوث مِن مَن ؟ و لمن ؟ و بماذا ؟

– لا تتغابى يا ولد فأنت غبي بطبعك ، و بسببك أنا الآن رجل ميت ، و إن لم تشفع لي السنين التي قضيتها في خدمتهم فسينتهي أمري حتما بعد تبليغي الرسالة .

أخفيت شعوري بالرعب و قلت :

– إذا لا تبلّغ الرسالة ، و حاول أن تزور طبيب أعصاب فأظن أنّك لست على ما يرام .

تغيرت ملامحه و ظهر الانكسار و الاستسلام عليه لأول مرة ثم قال بنبرة مغايرة :

– هيهات فإن بلغت فهناك احتمال أن أنجو ، أما إن لم أفعل فموتي و موت زوجتي و ابنتي الغالية أمر محقق .

– هوّن عليك يا عم فضيل ، و لنناقش الموضوع ، فهناك قانون يسري على الجميع .

ضحك ساخرا و قال :

– يقول لك الأسياد إنّ الشيء الذي حصلت عليه يخصهم و قد أصبح ملك لك الآن و لك ثلاث خيارات ، اختر أيها شئت ، الأول أن تعمل به في صفهم ، و الثاني أن تسلمه برضاك لمن يسعى في الحصول عليه و الثالث أن تبقيه عندك دون استعماله ، و الرابع انقلع من سيارتي فورا .

قلت قبل أن يجلس الرجل الأوربي بجانبه :

– ألا تريد إبلاغ أسيادك بردِّي ؟

– كلِّفتُ بإيصال الرسالة و لم أكلف بأخذ الجواب .

قررت في تلك الساعة العودة إلى الدار البيضاء ، فهناك أجوبة لا بد لي من الحصول عليها . أخبرت حفيظة أنني سأسافر في صبيحة ذالك اليوم فأنارت المصباح ثمّ جلست قبالتي و قالت :

– يا شعيب أنت زوجي ، و أنا سعيدة بهذا الزواج لأنني أنا من اتخذت القرار فيه ، و كلما تيقنت بأنك تخفي أسرارا عن المحيطين بك كلما ازداد حبي لك ، و لطالما كنت أمقت ضعف أبي و إخوتي لأنهم لا يكتمون شيئا عن زوجاتهم ، و تيَّقن أني سأكون لك سندا في يسرك و عسرك و لن أثقل عليك أو أحول دون تحقيقك لما تسعى إليه ، و مطلبي الأول و الأخير هو أن تعول أسرتنا ابتداء من السنة القادمة ، و أن تراعي حقي في الفراش ، أمّا دون ذالك فافعل ما شئت .

لمّا سمعت كلامها تذكرت كلام السيد عبد القدوس ففزت من مكاني و أخرجت الثوب القرمزي و ما يحتويه و وضعته تحت ثيابي في الدولاب و قلت :

– هذه وصية تركها عندي صديق توفي قبل أيام ، و كان من آخر ما قاله لي أنك ستكونين لي سندا في الحياة ، فأرجو منك أن لا تحركيها من هذا المكان و لا تلمسيها و لا تدعي أحدا يلمسها .

تهللت أساريرها بسبب الثقة التي منحتها لها و قالت :

– سأحرص على أن لا يدخل أي شخص غرفتنا و لن أفرط في مفتاح الدولاب ، و الآن تيقنت أنك لا تنوي تطليقي بعد أن انتهت محنة أختك .

من يحاول كشف وجودهم يتِمُ إسكاته

سعيت للحصول على بعض الأجوبة من صفية المرواني ، وجدت حالتها الصحية ازدادت تدهورا فأجّلت ذالك إلى أن تتحسن ، و بعد يومين بلغني أن ابن خال والدتي فضيل العيادي وُجِد مقتولا داخل مرحاضٍ في مطار باريس الدولي ، و خلصت التحقيقات إلى تورطه في تجارة المخدرات ، و أن قتله كان نتيجة تصفية حسابات ، شعرت في بادئ الأمر بالخوف ثمّ تحول الأمر إلى الشعور بالذنب و المسؤولية عن موته و ظل ذالك الشعور يلازمني إلى أن التقيتُ بابنتهِ صوفيا العيادي في المحطة الثالثة من رحلتي ، و اعترفت لي أنها هي من أمرت بقتل والدها فور وصوله إلي باريس و أن حارسه الشخصي و هو ذالك الرجل الأوربي الذي كان يرافقه في زيارته للمغرب هو من قام بالتنفيذ و سنذكر التفاصيل و الأسباب في حينها .

استقبلني عمر بوفلاح في مكتبه بحفاوة ، و أمر لي بعصير ، قلت له:

– لم أتوقع يوما أن أستقبل في مثل هذا المكتب .

– و لهذا يجب عليك أن تغادر الكواليس بأسرع وقت .

– أنا لست في الكواليس ، أنا على الخشبة .

– لا يا شعيب لقد انتقلت من بين الجمهور مباشرة إلى الكواليس و هذا ما يزعجني .

– و هناك جمهور أيضا !

– الدهماء و العامّة .

– و ما هو معيارك في تصنيف الناس ؟

– الدم .

– و كيف يكون ذالك ؟

– الماء سبب تواجد الناس و الدماء سبب تمايزهم و تغايرهم .

– لا أختلف معك أنّ من الماء خُلِقت جميع الدواب و الإنسان من بينها ، و لكن كيف يمكن للدماء أن تكون سببا في تمايزهم ؟

– سأخبرك بأمر لم يعد سرا منذ وقت قريب .

– تفضل .

– لمّا أهبط آدم من الجنة كانت حواء حامل بقابيل و أخته إقليما ...

قاطعته :

– هل تقصد أن حواء حبلت بقابيل و إقليما لمّا كانت لا تزال في الجنة ؟

– هذا صحيح و لكنها ليست جنة الخلد كما تظن ، فجنة الخلد رغم أنها كانت موجودة حين خلق آدم إلا أنه لم يدخلها أبدا و حين يدخلها فإنها لن يخرج منها .

– هذا غريب !

– و في حمل حواء الثاني الذي كان على الأرض، حملت حواء بهابيل و أخته ليوذا، ثمّ استمر الأمر هكذا في كل بطن توأم ، و اقتضت شريعة آدم أن لا يتزوج أي ذكر بأخته التوأم ، ولكن قابيل لم يرضى بذالك و ليس السبب هو أن إقليما كانت أجمل من ليوذا كما تعتقدون .

– و ما هو السبب حسب اعتقادك أنت ؟

– لقد اعتقد قابيل أنّه و أخته أسمى من أهل الأرض ، و لهذا يجب أن لا تختلط دمائهم ، و اعترض على شريعة آدم فلجئوا إلى تقديم القرابين كحَلٍ نهائي وعادل للطرفين ، و لكن قابيل ما كان ليرضى أن تختلط دماء أخته السماوية بدماء أخيه الأرضية فقتله .

– هذه قصة محبوكة لولا أني أسمع بها أول مرة .

– في العصر الحديث لم تعد هذه الرواية سرّا فقد تحدث عنها بعض الباحثين بإسهاب .

أعجبتني الحماسة التي كان يتكلم بها السيد بوفلاح وأحببت أن أظهر له اهتمامي بالموضوع فقلت :

– أفهم من كلامك أن الدماء التي تجري في عروقي إمّا أنّها تعود لأبناء آدم الذين ثمَّ الحمل بهم على الأرض و إمّا أنها تعود لقابيل و أخته إقليما اللذان حملت بهما حواء في الجنة .

– ذاك تفصيل دقيق يحتاج الكثير من المعرفة ، و لكن يمكنك أن تقول أن الدماء التي تجري في عروقك إما أنها تعود لمعصية و إما أنها تعود لطاعة .

– لنفترض أنني مقبل على عملية جراحية و أحتاج إلى كمية من الدم فكيف يتسنى لي أن أعرف إذا ما كانت الدماء التي سأستعملها دماء طاعة أو دماء معصية ؟

– و لهذا فإنّ تحاقن الدم حرام عند أغلب المؤمنين بالديانات السماوية .

– كلامك ليس صحيح ، بحسب علمي التحريم يختص بشرب الدم .

– الدم المسفوح حرام سواء أشربته أم حقنته ، و هذا لا يشمل الاضطرار .

– نستخلص من كلامك أن الدم الذي يجري في عروقنا فاعل رئيسي في تمايزنا .

– أجل ، و لهذا فإنّ الشيطان يجري مجراه .

قلت مازحا :

– إذا فالشيطان يمسك بمخنقنا من مجرى الدم .

لم يعتبرها مزحة و عقب عليها :

– تماما ، فهو يسعى لتخريب السند .

– أي سند ؟

ضحك السيد عمر و كأنه يتعجب من جهلي بأمور تبد في نظره من البديهيات .

– إذا أخذنا كلمة سند بما اصطلح عليه رواة الأخبار فإنّ الدماء يمكن اعتبارها سندا إلى الفطرة و كلما كثر الطائعين في السند و هم الأب و الجد و أب الجد إلى آدم كلما كانت الفطرة سليمة أكثر ، و كلما كثر العصاة في السند كلما كانت الفطرة سليمة أقل ، و لهذا فإنّ الساعة لا تقوم إلا على لكع ابن لكع ابن لكع ، أي سند مخرب تماما .

لم أرغب في مطالبته بالمراجع التي قاضته إلى هذه الاستنتاجات الغريبة حتى لا يطول بنا الأمر . و أرددت أن ننهي ذالك الموضوع فقلت :

– تعمقت كثيرا في مسألة الدماء هاته و لا أستطيع أن أجاريك فيها ، فما رأيك أن ننتقل إلى موضوع آخر حفاظا على وقتك ؟

– إنّها معرفة لا أعلم منها إلا الفهرس ، أما محتوى الكتاب فقد احتكره الذين يشربون الدماء .

– و من هؤلاء ؟

– أظن أنّ بجعبتك معلومات جديدة تريد مشاركتها معي .

– هل تعرف أحدا من أحفاد الأخرم ابن قسطنطين ابن هرقل ؟

شخصت عيناه و قام من على كرسيه و جلس على الكرسي المقابل لي ثم قال :

– كم تريد ثمنا له ؟

– لقد قلت لك يا سيد عمر أنّي لا أملك الشيء الذي تبحث عنه .

– أنت تكذب .

– أشكرك .

– إنّ الذين سألت عنهم يجب أن لا يعرف أحد بوجودهم .

– و هل هم موجودون فعلا ؟

– أجل ، و من يحاول كشف وجودهم يتم إسكاته .

– و هل سبق لك أن التقيت أحدا منهم .

– أنا لا أحلم بلقاء الأسياد الذين في نيويورك ، فكيف أحلم بلقاء أسياد روما ؟

– إذا كنت لا تسعى إلى لقاء هؤلاء الأشخاص فإلى ماذا تسعى يا سيد عمر ؟

– أسعى إلى المعرفة .

– المعرفة وسيلة و ليست غاية .

– لقد سمعت مثل هذا الكلام من السيد عبد القدوس و قلت له حينذاك المعرفة بالنسبة لي غاية .

– و بماذا أجابك ؟

– نعتني بأني تجسيد للأنوية في أعلى دراجاتها .

– و ماذا قصد بذالك ؟

– لم أعرف قصده و لا يعنيني وقد مات دون أن يفي بوعده لي .

– لقد أخبرتني أنّك تبحث عن المعرفة التي تدعى الجبت و السيد عبد القدوس دلّك على المصدر الذي يتسنى لك من خلاله الحصول على مبتغاك ، و ليس عليك إلا أن تجد دميان .

– يستحيل أن ألتقي بدميان مالم يرد هو لقائي .

و قفت استعدادا للرحيل ثم قلت :

– حاول يا سيد عمر .

صافحني بوجه متجهم و قال :

– لا أعرف عن الأسياد أكثر مما تعرف عنهم ، و لقد أثبتّ يا سيد شعيب أنك لاعب جيد و لذالك أرج منك أن تعدني بزيارة أخرى .

سيكون لك أولياء و أعداء

وُلِد هيثم عيطون في مدينة ليون الفرنسية و نشأ فيها ، و في بداية شبابه انخرط في حياة اللهو و المجون ، و لكن تعارفه مع شباب ينحدرون من مدينة صيد اللبنانية جعله يُغير مسار حياته ، و قد كان من أصحابي في المحطة الرابعة من رحلتي ، و لما تبين لي بوضوح من يمسك بالخيوط التي كانت تُحركنا في تلك المرحلة ، غادرت المحطة . أمّا هيثم فقد تنكر لي و لزمها إلا أن قُتِلَ فيها ، و كان حالي معه و مع باقي أصحاب المرحلة كما سنذكره كحال أصحاب الكهف الأفلاطوني ، أمّا الآن فنحن لا نزال في المحطة الأولى .

لمّا قرر هيثم عيطون الابتعاد عن حياة اللهو و المجون كان أول شيء فكر فيه هو الزواج ، و لأنه ينحدر من أصول مغربية فقد قرر أن تكون زوجته مغربية الجنسية و الهوية ، فاصطحب معه أخته الكبرى السيدة نجاة عيطون و كانت تجيد اللغة العربية لأنها قضت معظم طفولتها بالمغرب .لم تكن هناك وجهة محددة ، و لم تعجبه أي واحدة من الفتيات الثلاث التي أرتهن له أخته ، و في اليوم الخامس من زيارتهما للمغرب كانا يتجولان في سوق القريعة حين أبصر هيثم عمتي نعيمة برفقة ابنتها فاطمة ، فأمسك أخته التي كانت تسبقه ببضع خطوات من ثيابها و شرع يجرها و يشير لها إلى فاطمة و هو يردد هذه عروس ، هذه زوجة .

لحقت نجاة بعمتي و أخبرتها أن أخاها أعجبته فاطمة و أنه يرغب في الزواج منها ، و تابعت تحكي لها كيف أنهما قدما من فرنسا خصيصا للبحث عن عروس ، أجابتها عمتي بأن فاطمة ترغب في مواصلة دراستها و أنها لا نية لها في الزواج في الوقت الحاضر و خصوصا أنه لم يمضي الكثير من الوقت على موت والدها ، و حينما التفتت إلى فاطمة لتؤكد هي بنفسها هذا الكلام وجدتها تسرق النظرة تلو النظرة إلى هيثم و قد احمرَّ وجهها ، أمّا هو فقد ركّز بصره عليها و لم يسمح لعينيه أن تطرفا و لو مرة واحدة . و بعد حوالي ثلاثة أشهر كانت فاطمة تستقل الطائرة رفقة زوجها إلى فرنسا .

بعد زيارتي للسيد بوفلاح مكثت حوالي ساعتين و أنا أتصفح رواية دميان ، و في المساء سألت فاطمة :

– هل صفية لا تزال طريحة الفراش ؟

– لا و لكنها تتصرف بغرابة ؟

– كيف ؟

– أظن أنّه يجب عليك أن ترافقني غدا .

فتحت لنا صفية الباب و دخلت مباشرة إلى مكتبة السيد عبد القدوس قالت فاطمة :

– الأمر هكذا منذ يومين .

دخلت خلف صفية إلى المكتبة ، وجدتها تجلس على كرسي السيد عبد القدوس مغمضة عينيها كما فعل ذالك اليوم ، و من دون أن تفتحهما قالت :

– ادخل يا شعيب .

جلست على الكرسي البلاستيكي و قلت :

– يجب أن لا تضلي وحدك ، يجب أن تقبلي عرض خالك .

– اسأل .

أدركت على الفور أنها جادة و أنها لا ترغب في إضاعة الوقت .

– أسأل عن ماذا ؟

– ألا تريد أجوبة ؟

– ليس الآن الوقت غير مناسب .

– هل زارك مبعوث الأسياد ؟

لم أتفاجأ من سؤالها فقد كنت على يقين بأنها تعلم الكثير .

– نعم .

– و هل التقيت بأحد ما من الطرف الآخر ؟

– أي طرف ؟

– ماذا قال لك مبعوث الأسياد ؟

– أخبرني أن الشيء الذي أعطانيه والدك يخصهم .

– هذا صحيح .

– و طلبوا مني أن أعمل به في صفهم .

– الأمر عائد لك و أنت الذي تختار مع أي طرف تكون و في كلتا الحالتين سيكون لك أولياء و أعداء .

– و قالوا أنه يمكنني أن أسلمه برضاي إلى الشخص الذي يسعى إليه .

– إذا ثم غصبه منك أو أكرهت على تسليمه ، أو ثمّ قتلك عن عمد ليتم توريثه لغيرك فإنّه لن يستفيد منه مالكه الجديد لأن مفعوله سيبطل .

– و قالوا أنه يمكنني أن أحتفظ به من دون أن أفتحه .

– إذا عطلته لمدة خمسة و عشرين سنة سيعود إلى الأسياد مباشرة و في هذه الحالة ستقتل في آخر يوم من تلك الخمسة و عشرين سنة .

– ما هو ذالك الشيء ؟

– افتحه لتعرف ؟

– لقد قال لي السيد عبد القدوس أن لا أفتحه إلا إذا كنت مستعدا للموت .

– إذا قال ذالك فالأمر كما قال ؟

– و قال أنه يمكنني أن أحرقه إذا لم أستطع فتحه أو خفت أن يضيع مني .

– والدي لا يريد لذالك الشيء أن يعود للأسياد .

– من هم الأسياد ؟

– أي أسياد تقصد ؟

– الذين في نيويورك .

– إنها دائرة صغيرة تابعة لأسياد روما .

– و من هم أسياد روما ؟

– طبارس ابن أسطبيان ابن الأخرم ابن قسطنطين ابن هرقل و حاشيته .

– لا استطيع أن أصدق ما تقولين .

– و أنا أيضا لا أصدقه ، و لكن هكذا قيل لي لمّا سألت .

– و إذا طلبت منك النصيحة فبماذا تشيرين عليّ ؟

فتحت عينيها و قالت :

– إذا كنت تنوي إنجاب أطفال أنصحك أن لا تفتح ذالك الشيء .

– هل تعرفين السبب الذي دفع بالسيد عبد القدوس إلى إعطائي ذالك الشيء .

لم تجبني و قامت من على مقعدها و أشارت لي بأن لا أتحرك من مكاني و بعد دقيقتين عادت تحمل صندوقا صغيرا أعطته لي و قالت :

– هذه حلي والدتي أعطتها لي قبل موتها و أريد منك أن تسلمها إلى خديجة إذا ما مت.

ركزت بصري في عينيها لأعرف مدى جدِّيتها فوجدتها هادئة تتسم ملامحها بالارتياح قلت :

– من خديجة ؟

– عدني أن تسلمها لها .

– أعدك ، و لكن من خديجة ؟

– خديجة أمزار .

أقصِدُ القلب

قبل أن تسافر فاطمة إلى فرنسا برفقة زوجها هيثم عيطون بشهر واحد قالت لصفية :

– آسفة يا صديقتي لأني سأرحل عنك .

أجابتها صفية حينها :

– بل أنا التي سأرحل عنك يا صديقتي .

و كان الأمر كما قالت صفية ، فقد كان عادل المرواني غالبا ما يكون غائبا عن حي كولومبيا ، و باستثناء منير الذي لم يكن يُخفي عليه شيئا ، لم يكن رفقائه يعلمون أين يذهب ، و عند مغرب ذالك اليوم كان واقفا برفقة منير و شخص آخر حين قال فجأة : صفية .

قال منير :

– ما الأمر ؟

– صفية تنادي عليّ يجب أن أذهب .

طلب منه منير مرافقته ولكنه رفض بشدة و سلك زقاقا جانبيا لا يسلكه عادة ، و في نفس الوقت كان إبراهيم البركي في جلسة حشيش مع بعض رفقائه حين قال : سأفعل . سأله أصدقائه مع من تتحدث؟ لم يجبهم و نهض و هو يردد : يجب أن يموت سأنَفِّذُ حالا ، و سلك نفس الزقاق ليلتقي بعادل في منتصفها، كان شارد الذِهن و لم ينتبه إلى إبراهيم حين اقترب منه و ظنّه زبون يرغب في شراء الحشيش ، قال له من دون أن يُمعن النظر فيه : (منير هناك اذهب إليه) . لم يجبه و استل سكينا و طعنهُ طعنة مميتة اخترقت كبده .

عاد إبراهيم إلى أصدقائه يحمل السكين به أثار الدم و يصيح لقد قتلت شخصا ما ، لقد طعنته ذهبوا جميعا يجرون إلى المكان الذي أشار إليه ، وجدوا دماء كثيرة و لم يجدوا أيّ قتيل ، و في نفس الوقت كان حمزة المرواني يجلس في مقهى للشيشة بحي التشارك برفقة أحد أصدقائه و اثنتين من المومسات حين قال : (صفية تنادي عليّ) ، ضحك جلسائه و قالت مومس : (اسمي باتول و ليس صفية) ، لم يُعر ضحكاتهم أي اهتمام ، و قفز من على كرسيه و هو يقول : (عادل أيضا ينادي عليّ) ثمّ خرج إلى الشارع و أوقف سيارة أجرة عنوة و صعد على متنها على الرغم من اعتراضات السائق و الزبون المرافق له .

أمّا عادل فقد وضع يده على جرحه و عاد ليموت بين يدي منير ، و كان آخر كلامه هو :(أخبرها بأن لا تقتل مصطفى) . خرج كل ساكنة حي كولومبيا بدون استثناء يعاينون الحدث ، و جاء أناس من الأحياء المجاورة ، و طار خبر مقتل عادل القط في جميع أنحاء الدار البيضاء ، كنت مصدوما من هول الفاجعة حين أمسكت فاطمة بذراعي و قالت :

– يجب أن نذهب صفية تحتاجنا بجانبها .

أسرعنا الخطى إلى بيت المرواني ، وجدنا حمزة يبحث في جيوبه عن مفاتيحه و يبكي بصوت عال كطفل صغير ، لمّا سمعت فاطمة بكائه أجهشت بالبكاء هي الأخرى ، صرختُ في وجهه :

– أين صفية لماذا لا تفتح الباب ؟

قال بصوت غلَب عليه النحيب :

– إنّها في الداخل ، أظنها ماتت فقد سمعت ندائها قبل ندائِه .

في داخل البيت وجدنا صفية في سريرها مضطجعة على جنبها الأيمن واضعة يدها تحت خدها ، كانت تبدُ كأنها نائمة لولا سحنة الموت التي لا تخطئها عين .

تحدَث سكان حي كولومبيا على أن صفية بلغها خبر مقتل أخيها فماتت نتيجة سكتة قلبية ، و هذا أيضا ما نشرته الجرائد في صفحات الحوادث ، مع الاكتفاء بذكر الحروف الأولى لضحيتين و الجاني .

اختفى معظم شباب آل بركي من الحي و كذالك منير و أحمد و حمزة ، فقد سعت الشرطة جاهدة في القبض عليهم مخافة أن تقع أعمال انتقامية ، و الغريب في هذه الحادثة هو أن إبراهيم البركي الذي سلّم نفسه لشرطة طواعية كان يبكي و يقول : (كيف يعقل أن أقتل عادل المسكين) .

ثَمَّ حفر قبرين متجاورين ، دفن في أحدهما جثمان صفية و في الآخر عادل الذي تأخر دفنه يوما عن دفن صفية بسبب التشريح الجنائي ، و في الوقت الذي كان جثمانه يوارى التراب ، ألقى مؤذن مسجد حي كولومبيا موعظة مؤثرة ، كان شابا نحيف الجسم ، طويل القامة ، أبيض البشرة ، أمرد إلا من بضع شعرات أسفل الذقن ، و على الصدغين ، جاحظ العينين ، كان في حوالي الثامنة و العشرين من عمره . أبكت موعظته جلَّ الحاضرين ، و في تلك اللحظة بالضبط انتبهت إلا أني لا أذكر آخر مرة بكيت فيها ، أزعجتني تلك الخاطرة و سعيت إلى طردها من رأسي ، فبدأت بتتبع وجوه الحاضرين ، وقع بصري على عيني السيد خليفة أمزار و هما تحملقان بي ، تجاهلته و كأني لم أنتبه إليه ، و أرجعت بصري إلى السيد يوسف فدري الذي شرع في ختم الموعظة بالدعاء .

بعد الانتهاء من الدفن طلبَ مني هشام أمزار أن أنتظر قليلا إلى أن ينتهي والده من تلقي التعازي لأنه يرغب في الحديث معي ، وقفت في مكان قريب يستطيع خليفة أن يراني منه إذا ما انتهى ، لمّا رآني يوسف فدري منعزلا اقترب مني و قال :

– ما لي أراك منعزلا ، ألا تعلم أن الذئب يأكل من الغنم القاسية ؟

قلت :

– من الشاة و من الذئب ؟

– الشاة المؤمن و الذئب الشيطان . هل أنت شعيب مودود ؟

– أجل .

– لقد حدثني أخي عن تصديك لترهات ذالك الأستاذ المتسلط .

– متسلط ! صحيح ، هذا وصف يليق به .

– لماذا لا أراك يا سيد شعيب في المسجد ؟

– هذا لأنني لا أصلي .

– و لماذا لا تصلي ؟

– كان من الأفضل لو سألت منذ البداية (لماذا لا تصلي ؟).

– و ما أدراني لعلك تصلي في البيت .

– ألم تقل أن الذئب يأكل الشاة القاسية ، و ما دمت لا تراني في المسجد فأنا في بطن الذئب .

– ليس بعد يا سيد شعيب .

– أ لأن روحي لا تزال في جسدي ؟

– و أيهما يأكل الذئب الجسد أم الروح ؟

– الذئب لا يستطيع أن يسلط على الروح إلا من خلال الجسد .

– و أين العقل من هذه المعادلة يا سيد شعيب ؟

– العقل مع الجسد .

– كيف و هو شيء غير ملموس ؟

– الآلة التي تنتجه ملموسة ، حاله كحال السمع و البصر .

– أ تقصد الدماغ ؟

– أقصد القلب .

عدَّل قلنسوته بكلتا يديه ثم قال:

– إذا كنت تعلم كل هذه الأشياء و لا تصلي فأنت على خطر عظيم بسبب انتفاء العذر بالجهل عنك .

– أنا أتمنى أن أصلي ، و سأفعل في أقرب وقت .

تكلم خليفة أمزار من خلفي :

– إيّاك أن تفعل يا سيد شعيب .

نظرنا إليه معا ، قال يوسف :

– خليفة أمزار القاعدي المعروف ، الانسحاب يكون محمودا في مثل هذه المواقف ، لأن الملائكة تغادر إذا حضرت الشياطين .

قال خليفة :

– الصواب هو أن الجهل ينقشع إذا ما حضر العلم .

استنتجت بأن هناك لقاءات سابقة بين هاذين الشخصين ، و أنه يستحيل أن يجتمعا في مكان واحد ، و يستحيل أيضا أن يكون لهما أصدقاء مشتركين ، قلت :

– حينما نقوم بترديد المتداول على لسان الدهماء دون تفكير نقع في شرَك الشيطان شئنا أم أبينا .

قال يوسف :

– ماذا تقصد ؟

قلت :

– يا سيد يوسف يستحيل أن تطرد الشياطين الملائكة و على العكس من ذالك فأينما حلت الملائكة فرَّت الشياطين .

ضحك خليفة و قال :

– صحيح ، فهؤلاء المتزمتون يشبهون الشياطين .

همّ يوسف بالكلام فسبقته و قلت :

– يا سيد خليفة إنّ أقرب الناس شبها بالشياطين هم الذين لا يؤمنون بوجودهم .

احمّر وجه خليفة ، و قال يوسف :

– أفهم من كلامك أنك تريد أن تقف في منتصف الطريق بيني و بين خليفة .

قال خليفة :

– هذا إذا كنا على نفس الطريق .

قلت :

– يا يوسف . هل تستطيع أن تنفي عني مطلق الإيمان ؟

– لا .

– و هل تستطيع أن تنفي عني الإيمان المطلق ؟

– أنفيه عنك قطعا و من دون تردد .

– هل رأيت ؟ أنا بالفعل في وسط الطريق .

– هذه طريقة جيّدة في الاستدلال . و لكن احضر من الجلوس بين الشمس و الظِل فتلك هي جلسة الشيطان . و حاول أن نلتقي مرة أخرى .

بعد انصراف يوسف قال خليفة :

– أعجبتني معرفتك بمحتويات الكتب الصفراء .

قلت :

– لا تخاطبني و كأني جزء منك ، فأنا أنتمي للجميع ، و لا فرق عندي بين الكتب الصفراء و الكتب الحمراء .

كل ذي عقل ضعيف هو ضحية لنا

ما تُبديه ملامح خليفة أمزار من دماثة خلق و طيبة نفس ليست إلا مظاهر خدّاعة ثمَّ اكتسابها عبر سنوات طويلة من العمل في المجال السياسي ، و إذا كان النفاق هو إبداء شيء و إخفاء شيء يناقضه ، فيمكننا أن نطلق على خليفة منافق ممتاز،و اصطناعه للتواضع و دماثة الخلق ما هو إلا قناع يضعه على نفس حاقدة متكبرة ، تكره كل الناس و يكرهها أقرب الناس إليها و هذا ما أكدته لي ابنته سناء . طلب مني في ذالك اليوم أن أزوره في مكتبه و أعطاني العنوان ، وعدته بأن أفعل بعد عودتي من القرية ، و قد زرته في اليوم التالي لعودتي وفاءا بالوعد .

أمّا في القرية فقد تصادف وجودي بقدوم شخص يمارس الاحتيال بطريقة يسميها المغاربة السماوي و هذا نوع من الاحتيال يمكن اعتباره سحرا بلا مساعدة مباشرة من الشياطين ، و إنما هو سحر بيان ، و الذين يمارسون هذا النوع من الاحتيال يملكون موهبة نادرة في الإقناع و جرأة لا مثيل لها ، و أغلب ضحايا السماوي هن النساء .

جعل حسن الجوش قريتنا هدفا و اختار يوم السبت صباحا ، و ذالك هو الوقت الذي يكون فيه معظم الرجال في السوق الأسبوعية ، وجد زوجة عمي العربي تكنس أمام بيتها بمفردها فانتهز الفرصة وشرع في البهْلَلَة :

– سيدتي المحزونة سيدتي المهمومة ، أنتِ تعانين ، تقاسين ، أنتِ مريضة ، مسحورة ، محسودة و هؤلاء الذين تعانين من أجلهم لا يهتمون بك لا يسمعون لك ، و لكن أبشري فقد أرسلني أولياء الله الصالحين لأرفع عنك العناء ، و إياك أن تُجَدِّفِي أو تُهَرْطِقِي و لكن سلمي و استسلمي و دعي الأمر للأولياء ، يرفعوا عنك البلاء ، و ما كادته لك تلك الحاقدة الحرباء ، لا نريد بخورا و لا قرابين و لا دراهم ، فقط كوب ماء .

دخلت زوجة عمي المسكينة إلى بيتها و أحضرت له كوب ماء ، نفث فيه و تمتم بكلمات نصفها غير مفهوم ثم قال لها :

– قولي فالأولياء يسمعونك ، ما هي حاجتك نقضيها لك اليوم ؟

قالت :

– يا بهلول ، ابني عبد الغني اقترب من الأربعين و لا يزال يرفض الزواج و يتهرب كلما فاتحته في الموضوع ، و قد عرضت عليه الزواج من ابنة أختي فرفضها رغم جمالها و حسن خلقها .

– هيهات هيهات ، فتلك الأفعى الرقطاء أقسمتْ بأن لا يتزوج إلا بإحدى بناتها .

– هل تقصد محجوبة ؟

– و من غيرها ؟

– ما الحل يا سيدي ؟

– خذي هذا الكوب و أفرغيه في سطل ماء و رشي به جميع جدران الدار الخارجية لتحصين البيت و الأسرة ، و لكن قبل التحلية يجب التخلية ، أخرجي من بيتك تابعة سحرها .

– كيف أفعل يا بهلول ؟

أدرك حسن الجوش أنه تمكن منها فانتقل إلى المرحلة التالية و هي ابتزازها ما دامت في حالة التصديق الجازم فقال :

–لن تستطيعي بمفردك ، و ما عليكِ إلا أن تحضري هدية للأولياء ، و هم سيقومون بالأمر نيابة عنك . و كلما عظمت الهدية كلما كملت التخلية ، و كلما تأخرتِ أكثر كلما نقص مفعول التحلية .

دخلت المسكينة تهرول و أحضرت له ثلاثة آلاف درهم و جلباب يعود لعمي ثمنه ألف درهم ، أخذ حسن الغنيمة و أعطاها الكوب و صاح فيها :

– باشري و أبشري .

و في الوقت الذي كانت ترش فيه جدران المنزل ، أدركتْ أنها تعرضت لعملية احتيال بالسماوي الذي طالما سمعتْ به ، فأسرعت و أخبرت جارة لها بالأمر ، كان لتلك الجارة ابنا عمره تسعة سنوات أرسلته خلف المحتال . و في نفس الوقت انتبه مجموعة من الشباب إلى الشاب الغريب الذي يتجول في القرية بطريقة مريبة ، فاستوقفوه قبل أن يغادر القرية و سألوه عن وجهته ، أخبرهم أنه حافظ للقرآن و أنه يبحث عن مسجد ليشتغل فيه كإمام راتب ، اعتذروا منه و أفسحوا له الطريق ، و قبل أن يغادرهم صاح الفتى من بعيد :

– أمسكوا به إنه البهلول الذي احتال على زوجة السيد العربي .

انقضّ عليه الشباب و أوسعوه ضربا ثمّ قيدوه . أخبرتني حفيظة بالحادث و قالت لي أنهم يحتفظون بالمحتال في الساحة المقابلة للمسجد و أنّهم أرسلوا شخصا لإبلاغ الدرك ، اتجهتُ إلى وسط القرية حيث يوجد المسجد ، وجدتُ حلقة لا بأس بها من الناس معظمهم نساء حيث أن جلّ الرجال كانوا لا يزالون في السوق . لمّا وقفت في الحلقة رأيت الجوش في قيده جاثيا على ركبتيه يصطنع الجنون ، و به مجموعة من الكدمات ، كان في العقد الثالث من عمره ، قامته قصيرة و رأسه ضخم ، أبيض البشرة كلما تكلم تطاير اللعاب من فمه ، نظر إليّ فورَ وصولي و أرسل لي رسالة كتبها بملامحه مضمونها التوسل . قلت بصوت مرتفع :

– حينما يحضر الدرك سيعتقلونه و يعتقلون من تسبب له بهذه الكدمات .

قال أحد الشباب :

– إنه لص و قد نال ما يستحقه .

قلت :

– هذا صحيح . إنّه لص ، و لكننا لسنا السلطة حتى نُلحق به العقاب ، و أظن أن الدرك لن يتغاضوا عل هذا الأمر ، و لو فعلوا لسعى كل واحد منا إلى إلحاق العقاب بخصومه مستغنيا عن القانون .

قامت قريبات الشباب الذين أمسكوا بالجوش بحثِهم على المغادرة قبل مجيء الدرك ، و من تبقى من الحاضرين ابتعدوا عن الجوش قدر مستطاعهم . اقتربت منه و انحنيت إلى أن صار وجهي في مستوى رأسه ، وقلت بصوت مهموس :

– شعيب مودود .

– حسن الجوش . أشكرك .

– هل تستطيع يا سيد حسن تجاوز هذا المأزق مستعينا بالسماوي ؟

– السماوي بلا فائدة إذا كان المستهدف أكثر من واحد أو أكثر من ثلاثة بالنسبة لنساء .

– وإذا كان هذا الواحد يعلم أساليبكم ؟

– كل ذي عقل ضعيف هو ضحية لنا ، سواء علم أساليبنا أو جهلها .

– و هل أستطيع أنا تخليصك ؟

– بالطبع تستطيع .

– كيف ؟

– النساء .

– و هل سأنجح ؟

– جرِّبْ .

وقفت و نظرت صوب الجهة التي كانت بها معظم النسوة و قلت :

– إنّ هذا المجنون يقول كلاما كله حكمة .

شرع الجوش يتمتم بصوت منخفض و اقتربت بعض النسوة منه ، قلت :

– احذروا إن يدعُ عليكم فدعوات أمثاله تكون مجابة .

تحلقت عليه جميع النسوة و قالت واحدة منهن :

– يا بهلول ادعُ لبنتي بالزواج .

قال :

– ستتزوج إذا نزعتي عنها تلك التميمة التي ترتديها بقصد رد العين فهي التي ترد عيون الخطاب عنها .

احمر وجه المرأة و تراجعت للوراء ، و قالت امرأة أخرى :

– يا بهلول ادعُ لولدي أن يتحقق مبتغاه .

قال :

– أبشري سيركب ابنك الطائرة عمّا قريب .

قالت المرأة لولدها الذي كان يسمع :

– أسمعت يا عاق ؟ فك وِثاق هذا البهلول ، ستسافر بالطائرة و لن تركب قوارب الموت ، لقد كان كلام والدك صائبا عندما أمرك بالتمهل .

ضحكتُ بصوت عال و تساءلت في نفسي إذا ما كانت في مجتمعنا فتاة أطل عليها شبح العنوسة و لا ترتدي تميمة ، و هل يوجد شاب قروي لا يتمنى ركوب الطائرة سواء أكان يفكر في الهجرة أو لا . و هكذا استمرت النساء في طلب بركات حسن الجوش .

اعترض بضعة أشخاص عل فك وثاقه ، و كلمة الفصل كانت للغالبية ، و انتصرت الديمقراطية على الحزم ، طلبت مني إحدى النسوة بانفعال أن أُبْعِدَه قبل مجيء الدرك . و طبعا لم يصل الدرك لأنهم طلبوا من المُبلِغ أن يُحْضر المحتال إلى المخفر بنفسه . غادر حسن الجوش قريتنا خالي الوفاض ، و أكد علي بضرورة زيارته إذا ما حللت بمدينة آسفي .

في مساء ذالك اليوم زارنا عمي العربي و ابنه عبد الغني ، و وجّهَا إلي اللوم لأني ساعدت المحتال على الإفلات . أخبرتهما أني كنت تحت تأثير السماوي و أنّ المحتال أخذ مني مبلغ ثلاثمائة درهم قبل انصرافه ضحك الجميع و تحول اللوم إلى تعاطف ، أمّا حفيظة فكانت تعلم أني لم أكن أحمل معي أيّ نقود حين خرجت و هذا ما جعلها تقول مباشرة بعدما صرنا لوحدنا :

– لماذا كذبت يا شعيب ؟

و لأني أعرف جدّيتها و كرهها للمراوغة التزمت الصدق معها و قلت :

– أنتِ تعلمين أن عمي و ابنه علما أنني وقفت مع من احتال على زوجة عمي في غيابهم بدلا من أقف معها ، و هذا قرار صائب بالنسبة لي ، أما بالنسبة إليهما فإنه أشد مضاضة من السيف لأنه ظلم من قريب ، فكان أمامي خيارين . إمّا أن أبين لهما أن ما ناله المحتال من لكم و ركل كان كاف كعقوبة له ، و أن زوجة عمي يلزمها عقاب مثله حتى لا تُذعن في المستقبل لكلمة استسلمي ، و إمّا أن أدعي أنني أنا أيضا كنت ضحية للاحتيال حتى لا يساء فهمي و تقع القطيعة .

ضحكت و ضربت ذراعي ثمّ قالت :

– أنت أعلم مني بهذه الأمور ، و لكن لا تنسى أن الصيف على الأبواب .

– تُلمحين إلى العرس .

– بل أُصرح .

– لا تقلقي ، لن أخلفَ وعدي .

ابتسمت و قامت تُكَّحل عينها الوحيدة .

سيد الصناديق

يوجد مقر معهد الطليعة للدِراسات الجيوسياسية لدول شمال إفريقيا في الطابق الثالث من مبنى يقع في شارع بورغون ، كانت لهجة خليفة أمزار قريبة من لهجة فضيل العيادي ، تفوح منها رائحة الاستعلاء مع اختلاف بسيط في طريقة صياغة الكلام . طلب لي فنجان قهوة ، و تحدثَ طويلا عن يوسف فدري و التيار السلفي الدعوي خاصة ، و عن الإسلاميين عامة ، و زعم السيد خليفة أنه لو آلت له السلطة يوما فإنه سيسعى إلى استئصالهم بجميع انتماءاتهم ، و لما سألته عن سبب تطرفه أخبرني أن أمنيته هي إقامة نظام لا ديني و لا يمكن تحقيقها بوجود معاول الإسلاميين ، لم أشأ أن أعارضه أو أدخل معه في جدال بسبب أمنية حمقاء تشبه أمنية هتلر في استئصال اليهود فكانت النتيجة عكسية و جعل من اليهود أسياد العالم . ولم أشأ في نفس الوقت أن أدافع عن الإسلاميين كأشخاص ، و إن كنتُ متيقنا أنه لو أتيحت له الفرصة لاستبدل كلمة الإسلاميين بكلمة المسلمين .

ثمَّ كشف عن سبب رغبته في لقائي و سألني إذا ما كان السيد عبد القدوس أعطاني شيئا ما قبل وفاته قلت :

– نعم .

عقد ما بين حاجبيه و تشكلت علامات الكآبة على وجهه . قال :

– ما هو ؟

– أسطوانة في ثوب قرمزي .

شخصت عيناه و ارتعشت شفتاه و قام من على كرسيه ثم جلس ثم قام ثم جلس ، ثم قال :

– أتعرف ما هو ؟

– أظنه شيء يخص الأسياد .

– أسياد روما ؟

أومأت برأسي إيجابا

– هل قابلت أحدا منهم ؟

– قابلت مبعوثا من طرفهم .

سكت قليلا ثم قال :

– هل الأسطوانة لا زالت عندك ؟

أومأت بالإيجاب .

– هل تريد بيعها .

– لا .

– أنت لا تعرف أي شيء و لذالك يجب عليك بيعها و مغادرة المستنقع .

– أعرِفُ أني أجهل الكثير ، و لكني أسعى إلى المعرفة ، و لن أبيعها لأني أظن أنني سأقتل فور خروج الأسطوانة عن ملكيتي .

– هذا إن قمت بفظ ختمها و اطلعت على سرها .

– عن أي ختم تتحدث و قد كانت عند السيد عبد القدوس و لا بد أنه فتحها .

ابتسم بسخرية و قال :

– كلما انتقلت إلى سيد جديد كلما تشَّكل عليها ختم جديد .

– ستكون أول من أعرضها عليه إذا ما فكرت ببيعها ، و في المقابل أريد منك بعض المعلومات.

أظهر لي الابتسامة الساخرة مرة أخرى ، ثم قال :

– و ما هي هذه المعلومات ؟

– كل ما تعرفه عن صهرك السيد عبد القدوس .

سكت قليلا ثم نخر و قال :

– عبد القدوس المرواني خِبٌ هلك ، و أنت فتى أحمق يجب أن لا تعيش ، كيف يمكن أن يحصل غر مثلك على كنز يسعى إليه صفوة الناس ؟

– أظنه تهديد .

– بل أمنية .

– لا بأسَ عليّ إذا ، فجميع أمنياتك حمقاء يستحيل تحقيقها .

احمرت أوداجه و ضرب على سطح المكتب براحة يده اليمنى ، حافظت على هدوئي و لم أتحرك ، وقف و أعاد ضرب المكتب بقوة أكبر ثم شرع يتكلم بصوت مرتفع و كأنه يحاضر :

–عندما جاء بي والدي من تنغير إلى الدار البيضاء لم أكن أحسن الكلام باللغة العربية ، و ما كنت لأرضى أن أتعلمها ، و لكنها سم توجب علي تجرعه إذا ما أردت مواصلة تعليمي ، و في المرحلة الجامعية التحقت بالتيار القاعدي الماركسي و صرت من قادته و أنا في السنة الأولى ، أتعلم لماذا ؟

لم أجبه .

– أتعلم لماذا ؟ أجب .

قلت :

– لا أعلم لماذا و أعتقد أني أعرف كيف ، و يمكنك الاستمرار في المحاضرة فكلي أذان صاغية.

– لأني مؤهل للقيادة و لن تثني عزمي الستين سنة التي طويتها ، و أنّى لها ذالك و قد التقيت بسيد بلغ القمة وهو في الثمانين من عمره ، و قد اجتمعتُ به قبل ثلاثين سنة و كان عمره حينذاك ألف و ثلاثمائة سنة ، ألف و ثلاثمائة و أربعة عشرة سنة بالضبط .

قاطعته و قلت بنبرة تشوبها السخرية :

– أيعقل هذا و السيد عبد القدوس مات عن الستين ؟

– عبد القدوس أحمق ، و أختي التي أهديتها له هي الفيروس الذي أفقده عقله ، و ما كان عليه أن يتزوجها

أحببت فورة غضبه و شعرت بأني المسيطر فقلت :

– هل اشتغلت قوادا في ما مضى ؟

– لا يمكنك أن تنعت رجلا أقلع عن مخدر اسمه الدين و حذف من قاموسه كلمة حرام بالقواد ، ثمّ إنك لا تعلم شيء ، لقد كان عبد القدوس من سلالة أصيلة ،لقد كان من أنقى فروع الشجرة ، أجل لقد حصلت على الإرث . و لكن الدماء التي كانت تجري في عروقه أغلى و أثمن عند الأسياد من ذالك الشيء الذي صرت تملكه بغير وجه حق .

– هون عليك يا سيد خليفة فقد أهديه لك عما قريب .

أربكته كلماتي الأخيرة و أعادته إلى أعماق نفسه يجري معها حسابات برغماتية بعيدا عن الكبرياء الأنوي ، و قال :

– هذا ما يجب عليك أن تفعله و هو ما توقعه منك السيد عبد القدوس و ستعلم حينذاك مقدار كرمي .

– هل تعلم علما يسمى الجبت ؟

– أظنك تصلح للحقل السياسي .

– كيف ذالك ؟

– إذا فشل الترهيب فعليك بالترغيب .

– إذا لم تشأ الحديث عن الجبت فلا تفعل .

– إذا كان هوس أصحاب الخيمياء هو حجر الفلاسفة فهوس أصحاب السحر هو الجبت .

– هل أفهم أنه مجرد وهم ؟

– بل حقيقة ، و لكنها متوارثة .

– و الذي يتحصل على هذا العلم ماذا بوسعه أن يفعل به ؟

– هل تريد أن أخبرك بحقائق عشتها كبرلماني سابق ؟

– يسعدني ذالك ؟

– في سباق الانتخابات تتقارع سيوف المال و الدعاية و النزاهة ، و أغلب المتنافسين يدعون لِجمالِهم الجرباء و يجعلون مع الدعاء سحرا ، أما الذي يجعل مع الدعاء جبتا فمن المؤكد أنه سيكون سيد الصناديق .

– كيف يحصل ذالك ؟

– لا أعلم ، و لكنها الحقيقة .

– لا أفهمك ، تتبنى الإلحاد و تؤمن بالسحر كحقيقة .

– أؤمن بالسحر كعلم و ليس كخرافة .

– و هل الذي بالاسطوانة له علاقة بالجبت ؟

– إذا كنت ترغب في تعلم الجبت فأعطني الأسطوانة و أنا آخذك لمن يعلمك الجبت .

– إذا فالذي في الاسطوانة أعظم من الجبت .

– لا علم لي ، و لكن كنز العجوزين التوأم من دون شك أعظم من الجبت .

لم أعرف في ذالك الوقت من كان يقصد بالعجوزين التوأم ، و فيما بعد كشف لي عبد المالك شرواط ذالك السر المقيت .

لما استنتجت أن خليفة أمزار يحاول أن يمرر لي معلومات مضللة قدر إمكانه ، استأذنته في الانصراف ، و أخذ مني وعدا بتكرار الزيارة . خرجت من مكتبه و أنا مصمم على تنفيذ وصية صفية و إيصال تلك الحلي إلى خديجة أمزار في أسرع وقت ، ولكن اختفاء منير جعلني أُؤجل التنفيذ بضعة أسابيع و في تلك الفترة اقتربت حكاية شماعة الموسم الدراسي من نهايتها ، و غادرت فاطمة إلى فرنسا ، وبدأ التحضير للعرس الذي وعدت به حفيظة ، و التزم عمي العربي بكل ما تعهد به ، و كذالك فعل محمد أشقير ، أما الحدث الأبرز في تلك الفترة فهو ما وقع لحمزة المرواني .

عُقدتْ اجتماعات سرِّية

أخبرني محمد أشقير أن أحواله المادية تحسنت منذ أن زاره ذالك الشاب برفقة العامل ، و اعترف لي بان منصبه الجديد أتاح له الحصول على نصيب من أموال الظل التي تخلفها العقود المبرمة ما بين الدولة و الشركات المحلية الخاصة بالمرافق العمومية . و عرض عليّ سلفة أبدأ بها مشروعا خاصا ، أخبرته أني أنوي إنشاء مشروعي الخاص بالدار البيضاء و أني سألجأ إليه إذا ما احتجت إلى التمويل .

في حي كولومبيا كان مجموعة من الشباب الصغار يبيعون الحشيش التي يوزعها عليهم حمزة المرواني مقابل نصيب من الأرباح يسيل له لعاب أقرانهم . كانت الساعة السابعة مساءا ، و كنت في طريقي إلى بيت عمتي ، عندما مررت بحمزة و شابين أخريين يجلسون على صناديق للمشروبات الغازية بالقرب من بقالة الصحراوي . نادى عليّ و أمرَ الشابين بأن يأخذا صندوقا و يبتعدا قليلا ، جلستُ على الصندوق الشاغر ، كان حمزة مخمورا و بالكاد يستطيع الكلام ، أخرج من جيب بنطاله مفاتيح بيتهم و رماها أمام قدمي و أخبرني أن خليفة حاول أخذ بعد الأشياء بعد وفاة السيد عبد القدوس و لكنهم منعوه ، و طلب مني أن أتصرف في محتويات البيت بأسرع وقت لأنه ينوي حرقه ، أخذت المفاتيح و سألته عن مكان منير ، أخبرني أنه يتردد على الحي بين الفينة و الأخرى ، غير أنه نادرا ما يغادر بيت آل مرواني منذ وفاة عادل. و لما نهضت للإنصراف ، نادى على الشابين و قال لي :

– ليس البيت الذي في كولومبيا ، و إنّما بيتنا القديم الذي بالوازيس.

بعد يومين قام باصطحاب خمسة من أصدقائه إلى شاطئ عين الذياب ، و أخذوا معهم كمية كبيرة من الطعام و الخمر ، شاركهم في تناول الطعام و امتنع عن احتساء الخمر ، و لأنهم يعلمون شدة إدمانه تعجبوا من تصرفه . أخبرهم أنه لا يريد أن يموتَ سكرانا ، حسبوها دعابة و ضحكوا .

غادر المصطافون المغاربة المكان لمّا أبصروا زجاجات الخمر ، لم يعرهم حمزة أي اهتمام وصاحَ على ثلاث سائحات كنديات كن يجلسن غير بعيدات منهم ، و دعاهنّ إلى الالتحاق بهم ، وافقت اثنتان منهن فورا لما سمعتا لغته الفرنسية السليمة في حين تسمرت الثالثة و حذرت صاحبتيها بالانجليزية ، خاطبها بلغة انجليزية و لَكنة قريبة من اللكنة البريطانية و قال لها أنهم جاءوا بهدف التسلية لا غير . التحقت بهم السائحات و كذالك شابان آخران من معارف أحد المرافقين لحمزة ، و شرع الجميع في تدخين الحشيش باستثناء حمزة و الفتاة ميكايلا التي اعترضت في بادئ الأمر على الالتحاق بالمجموعة . كانت مبهورة من تبجيل المجموعة لحمزة و من سعة إطلاعهِ على الأدب الفرنسي ، و هي التي التقيتُها بعد أسبوع من موت حمزة .

لم يندهش أصحاب حمزة لأنهم كانوا يعلمون مسبقا إتقانه للُغتين الفرنسية و الانجليزية . و بعد منتصف النهار بساعة قامَ و خلع ساعته و سوارا ذهبيا و خاتمين كان يتزين بهما و أعطاهم لأعزّ أصدقائه و قال في جو ساده الاستغراب :

– إذا كان أمامكم خيارين ، إما أن تموتوا غرقا و إما أن تُفصل رؤوسكم عن أجسادكم ، فأيهما تختارون ؟

ساد الهرج بين الشباب السُكارى ما بين متوجس من أفعال حمزة الخرقاء ، و ما بين مستظرف لخفة الدم التي تحلى بها حمزة في تلك الساعات و مابين مُجيب عن السؤال . قال واحد منهم :

– أمّا أنا فأُفضل الغرق .

أخرج حمزة من جيبه رزمة من الأوراق النقدية و أعطاها له ، شعرتْ السائحات بالفضول فسألنه ، و أعاد عليهن السؤال بالفرنسية ، أربكهن الخوف و بدأت كل واحدة تحدق في الأخرى محاولات استكشاف سبب هذا التساؤل . أما حمزة فقد خلع قميصه و بنطاله و توجه صوب المياه ، تَبِعته ميكايلا و أوقفته قبل أن يخوض في البحر و قالت :

– أَجَزِمُ أنَّ قطع الرأس أرحم من الغرق .

نزع من على جيده قلادة كان يرتديها دوما ، و أمسك بيده اليسرى يدها اليمنى و وضع القلادة في راحة يدها بيده اليمنى ، ثم شبك أصابع يدها عليها و قال :

– شكرا .

قالت :

– أُؤكد لك ذالك ، فأنا أدرس الطب .

خاضَ في الماء و الجميع ينظرون إلى أن اختفى عن الأنظار ، أدرك أصدقائه أنه لم يكن يمزح . و بعد ستة و ثلاثين ساعة لفظ البحر جثته و كانت من دون رأس ، و لم يُعثر على رأسه إلى الآن و قد دفن من دونه .

في صباح ذالك اليوم الذي غرق فيه حمزة زرتُ السيد عمر بوفلاح و طلبت منه أن يدلني على عنوان آل مرواني القديم . ألغى جميع مواعيده و أصر على اصطحابي . كانت فيلا مهجورة في حي الوازيس بها حوض سباحة و حديقة صغيرة أتلفهما الزمن ، أوقفنا السيارة أمام مدخل الفيلا الخاص بالسيارات ، و شرعنا في محاولة فتح الباب الصغير الملاصق له ، أَبْصَرَنا حارسُ المنطقة و لكنه لم يجرأ على التقدم نحونا لمّا عاين لوحة السيارة الحكومية ، استطعنا دفع الباب الصدأ المنزوع القفل بصعوبة بالغة ، في الداخل لم نجد في الطابق السفلي غير قنينات بلاستيكية و علب السردين و اليوغورت الفارغة ، و كذالك قطع الزجاج المحطم ، شرعنا في تسلق الدرج بحذر شديد و لما وصلنا الطابق العلوي سمعنا صوت منير ينادي عليّ :

– هنا يا شعيب .

فقد أبصرنا من النافذة في الوقت الذي كنا نحاول فيه فتح الباب ، كان أشبه بهيكل عظمي و ملابسه رثة متسخة ، كان يجلس على لبنة إسمنتية و بالقرب منه سكينا من الحجم الكبير و قنينة كحول ، وجدنا برفقته شابان آخران . أمرهما بالنزول إلى الطابق السفلي ، شعرت بالأسى اتجاهه ، كنت أعلم أنه حزين على فقدان عادل و صفية و لكني لم أتوقع أن يبلغ مدى حزنه إلى هذا الحد قلت :

– هل تحتاج إلى بعض المال ؟

– أشكرك ، فكلما احتجت إلى المال أخرج للحصول عليه .

و أشار إلى السكين .

– اعتراض المارّة و سرقة أموالهم ليس بالأمر الجيد .

أومأ برأسه و كأنه يؤيدني و قال :

– أظن أنك تريد معرفة عنوان سناء .

– أجل و لهذا أنا هنا .

– لا تحاول ، فلن أخبرك .

– لقد وعدتُ صفية .

اغرورقت عيناه بالدمع لما سمع اسم صفية ، و بعد شرودٍ دام لحوالي ثلاثين ثانية قال :

– يمكنك أن تلتقي بسناء في العيادة ، أما عنوان سكنها فلن أخبرك به .

– لا بأس ، المهم هو أن ألتقي بها .

أعطاني عنوان العيادة و قال :

– لقد زرتها في اليوم التالي لموت عادل و أبلغتها أن آخر شيء قاله قبل أن يلفظ أنفاسه أن أُخبرها بأن لا تقتل مصطفى .

نظرتُ صوب عمر ، ابتسم و رفع حاجبيه للأعلى ، تابع منير :

– غير أنها لا تزال مصممة على قتله ، فأرجوك أن تحرس على أن ينفذ طلب عادل الأخير .

– سأُحاول .

– أهذا كل ما ترغب في معرفته ؟

– في الوقت الراهن نعم .

– لقد مات والدي في السجن .

– آجرك الله . هذا خبر آخر محزن .

– لن أستطيع مقابلة عمي عبد المالك .

– و لكن هناك وصية تركها والدك .

– أرجوك أن تهتم بأمر تلك الوصية .

– و لماذا أنا ألا يوجد شخص آخر من أقربائك ؟

– لا أحد أثق به غيرك و لا أحد منهم يعرف مكاني حاليا .

– و هل سيرضى عمك باطلاعي على الوصية ؟

– فقط قل له أبو القرون .

لما خرجنا سألني السيد بوفلاح :

– هل هذا الشاب هو ابن الحسين شرواط ؟

– هل تعرفه ؟

سكت إلى أن ركبنا السيارة ثمّ قال :

– لقد كان الحسين شرواط يشتغل عند السيد عبد المجيد المرواني والد عبد القدوس ، و لما مات هو وزوجته السيدة طامو في رياضهم بمدينة فاس انتقل الحسين إلى خدمة السيد عبد القدوس.

– و هل مات والديّ السيد عبد القدوس في وقتين متقاربين ؟

– بل في ساعة واحدة ، فقد ماتا نتيجة اختناق سببه لهما فحم التدفئة .

– و كيف انتهى الأمر بالحسين في السجن ؟

– لمّا تزوج السيد عبد القدوس بالسيدة خديجة أمزار ، وقعت خصومات بين المرواني و أفراد من بني عمومته و هم السيد بدرالدين الساحي و السيد أشرف الميلودي ، و تورط فرعين آخرين مصريين في الخصومة و هما السيد بهاء المناوي و السيد عهد الفتحي و كانوا جميعهم يرغبون في أن يتزوج السيد عبد القدوس بالفتاة التي يختارها من داخل العائلة .

– و ما الذي حصل بعد ذالك ؟

– عُقِدَتْ اجتماعات سرية بين عدة فروع من العائلة لحل النزاع و رفضت الفروع الأصيلة التي بلندن التدخل و كذالك تلك التي في أصفهان و موسكو و برلين .

– و كيف انتهى الأمر ؟

– تدخل الأسياد و أرسلوا إشارة إلى المتخاصمين .

– و ماذا كانت تلك الإشارة ؟

– لقد فصل رأس أشرف الميلودي عن جسده ، و قُبض على سائقه الخاص و اعترف أنه هو الفاعل ، و فهمت الرسالة. و انتقل السيد عبد القدوس و السيدة خديجة إلى الفيلا التي كنا فيها قبل قليل .

– أستنتجُ أن الأسياد أيدوا السيد عبد القدوس .

– ليس تطبيقا للعدل و إنّما لأن دمائه أنقى من دماء خصومه .

– و لماذا قتل الأسياد السيدة خديجة ؟

– لا أعرف لماذا و لا كيف ، و كل ما أعرفه هو أن السيد الحسين شرواط خادم العائلة اعترف بقتله لها و أن هدفه كان السرقة و ذالك كله حتى لا يُجرَّ أفراد الأسرة إلى التحقيق و ربما تعلم الصحافة المستقلة بالأمر و تحدث ضجة . و هذا متوقع من كل الذين يخدمون تلك العائلات ، و أظنك ستحصل على معلومات أكثر من وصية الحسين .

– ربما .

– لا زلت أنتظر منك يا سيد شعيب ما يفيدني في ما أبحث عنه .

– سوف أزورك في مكتبك يوم الأربعاء صباحا و نتحدث في الأمر .

لا يمكن رؤية ما خلفه

في عصر ذالك اليوم أخبرتني عمتي أن سكان الحي يتحدثون عن خبر موت حمزة ، و كيف أنه ذهب برفقة أشخاص آخرين إلى شاطئ عين الذياب و أفرط في شرب الكحول ثم قام ليسبح فغرق و البحث عن جثته لا يزال متواصل ، هذا ما كان يتداوله الناس ، لم أتفاجأ فقد كنت أتوقع ما هو أسوأ من الغرق و مع ذالك فقد شعرت بالأسى على آل مرواني .

اتجهت إلى منزل المرواني و استعملت المفاتيح التي أعطانيها حمزة بدا البيت و كأنه مهجور منذ مئات السنين ، تجولت في المطبخ و في المكتبة و في الغرف ، كان كل شيء لا يزال في مكانه ، وقفت أمام السرير الذي توفيت عليه صفية فشعرت بقشعريرة تسري في سائر جسدي ، خرجت و أعدت إغلاق الباب و القشعريرة لم تفارقني إلى أن اختلطت بالناس .

جعلني موت حمزة أؤجل زيارة سناء أمزار ، فبعد يوم من تأكيد خبر وفاته ، بحثت عن يوسف فدري و شرحت له كيف أن حمزة المرواني أوصاني بالتصرف بمحتويات البيت و أن أحمد المرواني هاجر إلى اسبانيا كما يقال ، و بعد جدل طويل قمنا برفقة بضعة شباب من سكان الحي بتوزيع الأثاث و أدوات المطبخ على أربعة من بيوتات الحي الأكثر فقرا ، و كذالك قمنا بنقل الكتب التي انتقاها يوسف إلى جمعية دار القرآن الواقعة بدرب السلطان ، أما باقي الكتب و كانت في معظمها كتب فلسفة و تصوف وأدب ، فقد أكّدَ يوسف على ضرورة حرقها ، قلت له حينذاك : لنفترض جدلا أنها شرٌّ محض فلماذا لا نتعامل معها كما قال الشاعر :

عرفت الشرَّ لا للشرِّ لكن لتوقيه

و من لا يعرف الشر من الخير يقعُ فيه

و هكذا استطعت إقناعه بالعدول عن رأيه و لم يكن الوقت مناسبا لجدل بيزنطي بنكهة سلفية ، بعد ذالك وضعت الكتب التي انتقيتها فوق سرير صفية الذي قررت أن أحتفظ به هو و الكرسي الذي كان يجلس عليه السيد عبد القدوس ، و أغلقت الباب .

استطاع خليفة أمزار من خلال نفوذه التسريع بدفن حمزة حتى من دون رأس ، و التقينا مجددا أنا و هو و يوسف فدري ، سألني يوسف :

– لماذا يصلي خليفة معنا صلاة الجنازة مع أنه ملحد ؟

قلت :

– لعله يعتبر الأمر ضرورة اجتماعية .

لم يعجبه جوابي و قال :

– ليس الأمر كما قلت ، و لكنّها مشية الغراب يا صديقي .

بعدها طلب مني السيد خليفة مرافقته ، أوضحت له أني ملتزم بموعد ، و وعدته بزيارة قريبة . انتهت مراسم الدفن في الساعة التاسعة و النصف صباحا و عند الساعة الحادية عشرة و عشرة دقائق كنت في مكتب السيد عمر بوفلاح ، وجدته ينتظرني برفقة صديق له اسمه ياسين العيدوس ، و أخبرني أنه عزمه ذالك اليوم ليعرفني عليه ، و بعد نصف ساعة انتقلنا إلى مقهى مجاور حيث تناولنا الغذاء على حساب السيد عمر ، كانت هناك إعاقة ظاهرة على يد ياسين اليسرى ، لم يكن يستطيع التحكم جيدا في الأصابع و الكوع ، ربما كان في ذالك الوقت في الرابعة و الخمسين من عمره ، كان بدينا و أحنف القدمين و يملك نظرة قاسية و وجها مخيفا ، طلب منه السيد بوفلاح أن يحكي لنا الأحداث التي عاشها في نيويورك ، نظر بارتياب إليّ ثم قال :

– هل تعني ما تقول يا سيد عمر ؟

– لقد أخبرتكَ أنه من أصدقاء السيد عبد القدوس .

أحنى ياسين رأسه بالقرب من الطاولة و شرع يحكي كيف وصل إلى اسبانيا و هو في السادسة عشر من عمره و كيف تمكن من الالتحاق بعصابات المخدرات بمدينة مالقا ، ثمّ كيف تورط في تصفية حسابات مع أفراد من الخيتانوس عندما كان في الثانية و الثلاثين من عمره ، ثم تمكنه من قتل ثلاثة منهم في ملهى ليلي و كذالك حارس أمن حاول التدخل فأصابته رصاصة عن طريق الخطأ ، و كيف تمكنت الأنتربول من القبض عليه في بلجيكا .

و أخبرنا أنه كان يتوقع أن يتم ترحيله إلى اسبانيا ليعرض على القضاء هناك ، و لكن ما حصل هو أنه ظل محتجزا في بلجيكا لمدة خمسة و تسعين يوما من دون السماح له بالاتصال بأي أحد ، إلى أن زاره في السجن شخصان يرتديان ملابس مدنية ، و وضعوا أمامه عقدا ، عرضا عليه إما أن يرّحل إلى اسبانيا ، و إما أن يوقع على العقد . كان مضمون العقد هو أن يقوم بقتل سبعة أشخاص يحصل مقابل كل عملية قتل على مبلغ سبعة آلاف دولار و يحصل على حريته بانتهاء مهمته ، و لم يحوي العقد أي تفاصيل أخرى و لمّا طلب قلما من أجل التوقيع ، ضحكا و أخبراه أنه يكفي أن يبصق على العقد و لما همّ بالبصاق سحب أحدهما العقد من أمامه و قال :

– لا تكن سخيفا ياهذا ، سنوقع بدلا عنك. و ما عليك إلى أن تستعد لأننا سنرحل بعد نصف ساعة .

في نيويورك علم التفاصيل المخيفة التي لم يتحدث عنها العقد ، لقد كانت نزالات حتى الموت ، كان ينقل معصب العينين إلى الحلبة التي كانت عبارة عن غرفة مربعة مساحتها سبعة أمتار ، أرضيتها من السيراميك الأبيض و جدرانها من الزجاج السميك الذي يستحيل كسره و لا يمكن رؤية ما خلفه ، ويمكن سماع الأصوات فقط ، قال كنا نحن المتبارزون نُرى ولا نَرى ، كانت هناك قاعدة واحدة تتلى عند كل نزال ثم يتلوها التصفيق ، إذا لم يقتل أحدُ في النزال فسوف يتم تقييد المتبارزيَنِ و إدخالهما مع خصمين آخرَينِ .

لقد علم ياسين أنه إذا أراد الحياة فلا بد له من قتل سبعة أشخاص، و لأنه كان يعلم أن خصومه لا بد أنه ثم انتقائهم بنفس الطريقة التي اصطيد بها فقد شعر بصعوبة الأمر ، و هذا ما حصل بالضبط ففي نزاله الأول كان خصمه يخوض النزال الأول و في نزاله الثاني كان خصمه يخوض نزاله الثاني و

في الثالث كان خصمه أيضا قد قتل شخصين و يسعى إلى قتل الثالث ، و هكذا فكلما اقترب من النجاة كلما صعبت المهمة ، و في الأخير فلن ينجو إلا واحد من أصل مائة و ثمانية و عشرين مجرما ثم التقاطهم من جميع سجون العالم .

قبل النزال كانت تُنزع عنهم جميع ثيابهم ثم يقفون عراة وسط القفص الزجاجي ، لتبدأ المزايدة على نوع السلاح المستخدم في القتال ، في نزاله الأول اختار الفائز في المزايدة السواطير التي قبضتها قصيرة ، قال أنه لم يشعر بالشفقة اتجاه خصمه الذي لا يمكن أن يكون إلا مجرما مثله و أنه لم يحاول ضرب خصمه مباشرة بالساطو ر كما فعل منافسه ، و إنما قام بقذفه به على وجهه مما تسبب في فقدانه للوعي ليجهز عليه بعد ذالك .كما تحدث عن خصمه الرابع الذي كان نصف ميت جراء ضربة فأس تلاقها على رأسه في نزال سابق ، و كيف أنه اضطر إلى إمساك سكين خصمه في النزال السادس بيده اليسرى قبل أن يطعنه في عنقه، و لحسن حظه فقد اختار الفائز في المزايدة عصي البزبول كسلاح في النزال السابع ، فتلقى مجموعة من الضربات التي وجهها له خصمه بكتفه و رد بعضها بيده اليسرى المصابة في حين كان يركز ضرباته على قدمي خصمه إلى أن أسقطه أرضا ليحطم رأسه بعد ذالك ، لم يكن يصدق أنهم سيدعونه يعيش بعد الذي عاينه و لكنهم و فوا بعهدهم ، و عالجوا جراحه في مصحة خاصة في مانهاتن ، و طلبوا منه أن يتنقل كيف ما شاء في أرجاء المعمورة باستثناء أمريكا و اسبانيا ، أعطوه كل النقود التي جناها و أخبروه أن يستأنف حياته بطريقة عادية و دون خوف ما لم يتحدث عن تلكم النزالات . كشف لنا ياسين عن بعض جراحه الملتئمة و تأسف عن جراح روحه التي لم تلتئم بعد ، و عن النوم الذي لم يتلذذ به منذ أن وطأت قدماه بلاد العم سام .

قال ياسين بعد حكيه الطويل :

– بعد عودتي إلى المغرب بشهرين زارني السيد عبد القدوس و أخبرني أنه هو المزايد الذي اختار عصي البزبول في النزال السابع ، و أنه اختارها لأني كنت مصابا و لأنّ خصمي كان فلبيني تمتاز حركاته بالخفة و الرشاقة ، و ما كنت لأنجو لو تقاتلنا بسلاح أبيض ، و أخبرني أنه خسر ثروة في تلك المزايدة ، و طلب مني إسداء خدمة مقابل ذالك الجميل ، و ما كنت لأرفض بعدما تيقنت أنه كان هناك بالفعل ، على الرغم من أن طلبه كان أغرب و أصعب من النزالات .

توقعت من السيد ياسين أن يخبرنا بالخدمة التي طلبها منه السيد عبد القدوس و لكنه غيَّرَ الموضوع وقال:

– النفوس المريضة كطيور داخل قفص ، و عندما تنظر إلى طائر يقتل طائرا آخر خارج القفص تشعر بالراحة و النشوة و تكره الحرية . لقد جرت مائة و سبعة عشرة مبارزة و قتل مائة و سبعة و عشرون متبارزا في ظرف ثلاثة أسابيع ، و لا زالت تلك النزالات تقام إلى يومنا هذا ، و أكد لي السيد عبد القدوس أن تلك القتالات تقام منذ مئات السنين و أنها انتقلت من روما إلى نيويورك مع تلك الحلقة المنبثقة من الأسياد .

فطِن السيد عمر إلى رغبتي في معرفة ماذا كان مطلب السيد عبد القدوس من ياسين ، و صرّح بأن لا أتعب نفسي لأنه حاول مرارا مع ياسين من دون جدوى ، غير أني حاولت بعد ثلاثة أشهر من تلك الجلسة و حصلت على الإجابة الصادمة .

اللغز الذي تمنى برنارد شو أن يجد له حلا

استأذن ياسين العيدوس في الانصراف بعد أن احتسينا شاي ما بعد الغذاء ، طلبت منه عنوانه و أعطاه لي فرحا ، و أعرب لي عن شدة سروره بالوعد الذي قطعته له بزيارته .

و فيما كان السيد عمر بوفلاح يستعمل مرحاض المطعم ، كان ذهني يتساءل عن ردة فعل أي عاقل لو أخبرته بهذه الأحداث التي عشتها ، فمن دون شك سيعتبرني معتوه أثرت فيه هوليود أو نزق حالم أصابه مس من بوليود . فليس كل ما يعرف يقال و الدهماء لا يشعرون بالشيطان حتى و لو أمسك بمخنقهم .

أظن أنني لست نادما على سعيي في مفارقة الدهماء و لا يهمني إن كنت أنا من عثر على السيد عبد القدوس أو أنه هو من عثر عليّ ، و إلى حد هذه اللحظة فإنني لا زلت أضع شارة التسعين ، و أجري في التحمية ، و سأدخل أرضية الملعب و ألعب عاجلا أم آجلا فيستحيل أن أكتفي بالمشاهدة ، و في المقابل من الصعب البدء في اللعب ما لم أتعرف على كل اللاعبين الكبار , و إنّه لانتحار فتح ذالك الشيء دون الحصول على دليل استعمال ، و ليس أمامي في الوقت الراهن إلا كلمات السيد عبد القدوس اسعى إلى نفسك ثم اسعى بنفسك ثم اسعى لنفسك .

سألني السيد بوفلاح إذا ما كنت أرغب في المُحليات ، أجبت بالنفي و شكرته على كرمه ، ثم قلت :

– لعلك تعتقد أنني صرت أدين لك ببعض المعلومات .

– بصراحة هكذا أتسلق ، أُقدم بعض الخدمات البسيطة للذين أنتظر منهم فوائد مُربحة .

– ميكافيلية إذا .

– إذا أخذت سيرة سياسي معاصر من ذيل الطابور و قارنتها بكتاب الأمير، فستعلم أننا نظلم ذاك القديس ميكافيلي .

– يا سيد عمر لو نظرت إلى ميكافيلي نظرة بسيطة و محايدة بعيدا عن القراءات المقعرة و التحليلات الملتوية لاستنتجت أن الرجل لم يكن سوى متملق كبير لم يأتِ بجديد ولم يؤسس لأي شيء .

– الميكافيلة عندك نظير لتملق !

– الميكافيلية عندي هي الخطوط الحمراء التي أباحها المتملقون للحكام قبل ميكافيلي و بعده .

– يعني هذا أنني إذا أردت تملق الحكام فيجب عليّ أن أجعل في شارة المرور ضوءا أخضرا بين ضوءين أخضريين .

– و هنا أبدع ميكافيلي فقد أباح للحاكم كل شيء ما عدا التفريط في منصب الحاكم .

ضحك السيد عمر و قال :

– و هذا ما يود كل حاكم سماعه من الحاشية المحيطة به .

– تماما .

ابتسم بخبث و قال :

– يؤسفني يا سيد شعيب أن أخبرك أن الحاكم و منذ عصور طويلة لا يمكنه أن يباشر منصبه إلا بعد أن يتم ربطه بثلاثة حبال ، حبل يلف حول عنقه و آخر بوسطه و ثالث بقدمه اليمنى .

– هل هذه أحاديث خرافة ؟

– لقد كان خرافة يقول الحقيقة و لكن قومه لم يصدقوه .

– و من الذي يربط تلك الحبال ؟

– أفراد من بني قابيل ، رهط السيد عبد القدوس بأمر من الأسياد .

– معلوماتك غريبة !

فتح الزر العلوي لقميصه و قال :

– ما دمنا نتفوه بأحاديث خرافة فهل تستطيع أن تخبرني باللغز الذي تمنى برنارد شو أن يجد له حلا

– على ما أذكر أنه لغز الرجل ذو القناع الحديدي في عهد لويس الرابع عشر .

– و هل عرفت أنت من هو ذاك الرجل ذو القناع الحديدي الذي عاش في عهد لويس الرابع عشر ؟

– هناك عدة تخمينات بعضها منطقي .

– كلها خاطئة و مضللة .

– كيف ؟

– ذالك الرجل ذو القناع الحديدي هو لويس الرابع عشر نفسه .

تأملت ملامحه محاولا أن أستبين إذا ما كان يعتقد فعلا ما يقول و يجزم به ، أم أنها استنتاجات شخصية منه ، فطنَ إلى مرامي و قال :

– نحن نروي أحاديث خرافة يا سيد شعيب ، أليس كذالك ؟

– و من الذي كان يحكم عندما كان لويس الرابع عشر في السجن بقناع حديدي ؟

– لويس الرابع عشر الذي بعثه الأسياد .

– و لم يلاحظ أي أحد الاختلاف ؟

– لم يكن هناك اختلاف ، فقرين لويس المسجون كان مرشدا للويس الحاكم .

– و لماذا لم يقتلوا لويس الحقيقي بدل سجنه ؟

– ليظل القرين محتفظا بكامل ذاكرة الملك ، فكل إنسان عندما يموت تدفن ذاكرته معه و يستحيل على أي مخلوق نبشها ، و لذالك كان بقائه حيا ضرورة و ليس رحمة به .

– إن صح ما تقول فالأمر أغرب من حديث خرافة نفسه .

– بتلك الطريقة سحب الحبل الذي كان يلف خاصرة الحاكم لويس الرابع عشر و قد لمح فولتير لهذا السحب عندما تساءل عن الذي كان معروفا وقتئذ عند جميع الناس و صورته معلومة للجميع حتى يتم إخفاء وجهه بقناع حديدي.

– أعجبتني مسألة الحبال هاته و لا أسلم لك بها .

– و ماذا لو أخبرتك أنهم سحبوا الحبل الذي كان حول عنق الحاكم جون كيندي و كذالك الحبل الذي كان يلف الرجل اليمنى للحاكم أدولف هتلر و عدد كبير من الحكام الذين سقطوا .

– و هتلر أيضا ؟

– نعم ، رغم أنه كان من بني قابيل و التقى مرارا بالأسياد .

– لا أصدقك .

– أنت لا تصدقني لأنك شاب عاقل .

– أشم رائحة تهكم .

– التهكم ليس من طبعي ، أخبرني بما في جعبتك .

لم تعجبني الطريقة التي أنهى بها الموضوع غير أني أذعنت نظرا للفترة الطويلة الذي قضيناها في المقهى .

– هل تعرف خليفة أمزار ؟

قهقه بصوت عال و قال :

– هل أخبرك أنه يستطيع أن يطلعك على أسرار الجبت ؟

– زعم أنه باستطاعته أن يدلني على من يعلمني الجبت .

– و المقابل ؟

– ذالك الشيء المختوم الذي أعطانيه السيد عبد القدوس .

عبس ثم أمسك بيده اليمنى على رسغ يده اليسرى و مط ذراعيه إلى تحت و قال :

– حسِبتُ نفسي لذو شق على الضرع الظنون ، و ها أنت تصرخ في وجهي أنك لذو شق على الحُطمِ الحرون .

– لندع الرياحي و التفاضل بالسنين جانبا ، و أعطني رأيك في عرض خليفة أمزار .

– خليفة أمزار كذاب كبير و ورقة مكشوفة ، و قد وصل غايته القصوى منذ سنين طويلة ، و دماءه لا تسمح له بأن يتقدم خطوة واحدة أخرى ، و لذالك رسم له خط أحمر إن تجاوزه احترق ، و لا شك أنه سيحترق قريبا .

– و هل تجاوز أسفل الهرم ؟

– إنه ذو نفوذ كبير ، و لكنه لم يستطع أن ينتمي إلى الهرم أصلا .

– حسبته يعلم الكثير .

– هذا صحيح ، لأنه من الذين يطوفون بالهرم و يتمسحون به و يعلمون من في الأسفل و من في القمة و من حل و من ارتحل ، و من صعد و من سقط و كل شيء عن ظاهر الهرم .

– و هل هذا حالك أنت أيضا ؟

– لا ، أنا أتمنى أن أعرف كل شيء عن الهرم ظاهرا و باطنا من دون أن أنتمي إليه .

– لقد سبق و أخبرتني أنك جعلتَ المعرفة غاية لك .

– أظن أنك لم تفتحه ، و أستبعد مسألة بيعه ، يبدو أنك سهل ممتنع ، و لكن إذا تشاركت معي المعرفة فذالك يُرضيني .

– بالطبع سأفعل ، أما في الوقت الراهن فأرج منك أن تساعدني في نقل كتب السيد عبد القدوس إلى حيث يمكن الاستفادة منها .

– أفضل مكان لها هو مكتبة البلدية و سأرسل لك غدا صباحا شاحنة ، و في المقابل أرج منك أن تحرس على أن نلتقي بعد ثلاثة أشهر من الآن .

– و لماذا ثلاثة أشهر ؟

– لقد علمت أن أحد الدميانات يملك شقة في باريس ، اسمه الحالي ديفيد برين ، و يعمل في عصرنا الحالي باحث متخصص في علم النبات و قد نشرت له عدة كتب مصورة ، حصلت على اثنين منها مع أنها باهظة الثمن .

– الأمر لا يحتاج إلا ثلاثة أشهر .

– علمت أن السيد ديفيد برين يعيش متنقلا في براري العالم و لا يزور شقته إلا لمدة يومين أو ثلاثة أيام في السنة ، و غالبا ما تكون هذه الزيارة في الصيف .

– و ماذا عن عملك ؟

– لقد أشعت أني سأذهب إلى فرنسا من أجل إجراء عملية جراحية و رتبت الأمور جيدا ، و خلال فترة غيابي سيشغل نائبي منصبي .

– و ماذا إن لم يكن دميانا حقيقيا ؟

– مصادري لا تخطئ .

كان الأمر كما قال السيد عمر بوفلاح ، فقد التقيت السيد ديفيد برين في باريس بعد بضعة سنين ، و رافقته في رحلة إلى براري سويسرا لمدة أسبوع و قد كان السبب الرئيسي في مغادرتي للمحطة الرابعة من رحلة الصدام مع الشيطان ، و قبل ذالك استطاع من خلال ساعة واحدة أن يجعل من السيد عمر بوفلاح إنسانا متصوفا .

لقد كان السيد ديفيد برين معمِّرا ، و لكنه لم يقحم نفسه يوما في الصراع الحضاري ، و إنما ظل دوما فيلسوفا بثوب راهب أو راهب بثوب فيلسوف يسافر في الزمان و المكان . و سأذكر كل ذالك بالتفصيل كل في محطته المناسبة لأنها من المعالم المهمة في رحلة الصدام الكوني .

تجاوز التصديق و الهوس ليصل إلى الجنون

ساعدت في شحن الكتب على متن الشاحنة التي أرسلها السيد بوفلاح ، طلبت من سائقها أن يوصلني إلى أقرب نقطة من شارع الزرقطوني يمر بها في مساره ، تفضل و أوصلني إلى بداية الشارع . وجدت هدفي بعد عشرة دقائق من المشي على باب عمارة مكونة من ثمانية طوابق ، كان لوحة مكتوب عليها الدكتورة سناء أمزار طبيبة أسنان الرقم ثلاثة عشرة الطابق السابع .

أخبرتُ أني لم أحصل على موعد مسبق فطُلِبَ مني الانتظار على الرغم من أن العيادة كانت خالية ، و بعد نصف ساعة دخلت تلك السيدة التي كانت تجلس في الاستقبالات إلى غرفة الفحص ثم عادت و طلبت مني أن أرجع في الغد ، أخبرتها أن حالتي مستعجلة و لا بد لي من رؤية الطبيبة اليوم ، قالت أنه بإمكاني زيارة طبيب آخر ، رفعت صوتي متعمدا و بدأت أصرخ و أتذمر و أنه ما كان ينبغي لها أن تتركني أنتظر لمدة نصف يوم ثمّ تصرفني بخفي حنين ، مع أنها لم تكن إلا نصف ساعة في الحقيقة .

خرجت سناء أمزار فور سماعها لصراخي ، كانت شابة في السادسة و العشرين من عمرها نحيفة ذات بشرة بيضاء و شعر أسود مجعد ، كان أجمل ما فيها هو سواد عينيها و كبرهما ، طلبت مني فور خروجها أن أعود غدا لأنها متعبة ، كنت أعلم مسبقا أنها متعبة و حزينة ، و كيف لا يكون ذالك و قد فقدت زوجها و حبيبها عادل المرواني بطريقة مأساوية و ابنتها خديجة لم تتجاوز بعد العاشرة من عمرها ، و قبل ذالك اضطرت إلى ترك بيت والدها لرفضه زواجها من عادل ثم اضطرت مرة أخرى إلى تسجيل نفسها كأم عازبة و بالاتفاق مع عادل حتى لا يعلم أحد بانتساب الصغيرة خديجة إلى آل مرواني ، أما أصعب ما في الأمر فهو أن أكبر أعدائها في هذه الدنيا هم أقرب الناس إليها و خصوصا أخوها مصطفى الذي لم أكن أعلم سر كرهها له .

قلت :

– أعتذر يا دكتورة عن الإزعاج ، و أرجوك أن تجري علي فحص أولي بسيط .

قالت :

– إذا كانت تؤلمك ضرس أو سن فيمكن لمريم أن تعطيك مسكنا مجانا .

– أرجوك ، فقط ألقي نظرة .

– ادخل ، يمكنك أن تترك حقيبتك هناك .

دخلت خلفها و أنا أتمتم أنه لا يمكنني أن أترك حقيبتي لأن فيها أشياء مهمة . طلبت مني أن أفتح فمي بعد أن استلقيت على كرسي الفحص فقلت :

– هل أنتِ متأكدة يا دكتورة من أنك ترغبين مني أن أفتح فمي .

– أجل ، و لا تعاود مثل هذا المزاح لأن مزاجي لا يسمح .

– أحمل في حقيبتي هذه أمانة إلى خديجة أمزار من عمتها صفية عهدت بها إلي قبل موتها.

ارتسمت علامات الخوف على محياها و قالت بعدما رجعت إلى الخلف :

– ماذا تقول ؟

– كان يجب عليّ أن أفتح الحقيبة قبل أن أفتح فمي .

فتحتُ الحقيبة و أخرجت الصندوق و أعطيته لها ، وضعتْ المقص الذي تناوَلَتْهُ في الوقت الذي كنت أفتح فيه الحقيبة جانبا ثم فتحت الصندوق و أمعنت النظر فيه جيدا ، قالت :

– هل أنت شعيب ؟

– لقد صرت مشهورا .

– هل منير هو الذي أعطاك العنوان ؟

– أجل .

– هل أخبرك بشيء ما ؟

– طلب مني أن أثنيك عن عزمك في قتل أخيك مصطفى .

اغرورقت عيناها بالدمع ، توقعتُ أن تجهش بالبكاء لكنها تجلدت و قالت :

– سوف أقتله و لا أظنك ستُخبر الشرطة .

– لا لن أفعل ، و في المقابل سأحرص على أن تنفذ وصية صفية و تصل هذه الحلي لخديجة ابنة عادل.

– لا شك أن ثمنها لا يقل عن مائة و خمسين ألف درهم .

– ما يهمني هو أن أُسَلمها إلى خديجة بيدي و ليس ثمنها .

أخرجت من محفظتها ورقة نقدية من فئة مائتا درهم و طلبت مني أن أعطيها لمريم كثمن للكشف ، و أن أنتظرها تحت لمدة عشر دقائق . بعد أقل من عشر دقائق نزلت و طلبت مني أن أرافقها إلى حيث ركنت سيارتها التي كانت من نوع بيجو مائتان و خمسة ، و قبل أن تدير مفتاح التشغيل نزعتْ من على الزجاج الخلفي للسيارة ورقة مكتوب عليها للبيع .

في تلك الرحلة القصيرة من شارع الزرقطوني إلى شارع أنفا و التي استغرقت نصف ساعة أدركت شدة الكره الذي تكنه سناء لعائلتها عامّة و أخوها مصطفى خاصة و قد نعتته مرارا بالوحش ، قبل نهاية شارع أنفا انعطفتْ يسارا لنُصبح في الشارع الرئيسي للحي الحسني حيث تمر الحافلات المتجهة إلى البيضاء القديمة و إلى المحطة الطرقية ولاد زيان .

كان ذالك المبنى مكون من ثلاث طوابق ، سفلي يحوي ثلاث محال تجارية كُتب على باب أحدها للبيع ، و من طابقين سكنيين ، طلبت مني أن أنتظرها في السيارة و اتجهت صوب منزل يقع في الجهة الأخرى من الشارع ، و عادت برفقة سيدة سمراء بدينة تحمل خديجة بين ذراعيها ، فتحت باب المبنى و طلبت مني الصعود ، كانت شقتها تشغل الطابق الأول بأكمله ، بعد أن جلسنا أَمَرَتْ المرأة البدينة بأن تُعد الشاي . كانت خديجة نسخة طبق الأصل عن القطط فقد كانت تشبه عادل و صفية إلى حد كبير غير أنها كانت ممتلئة ، طلبت مني سناء أن أُسلِمَ ابنتها الأمانة فوضعتُ الصندوق بين يدي الصغيرة التي حاولت عضه ، قالت سناء :

– لقد وفيت يا سيد شعيب بوعدك ، و يمكنك بعد أن تشرب الشاي أن تغادر و أنت مطمئن .

– و ماذا عن طلب عادل الأخير ؟

سكتتْ حتى ظننت أنها ستطلب مني المغادرة قبل أن أشرب الشاي ، ثم قالت :

– هل تعرف ؟ لقد أخبرني عادل عنك .

– كيف ؟

– كنا نحاول أن نضع خطة لقتل مصطفى من دون أن تحوم الشبهات حولنا ، و سرعان ما كنا نكتشف الثغرات و المخاطر المحيطة بها فنتراجع ، و ذات مرة قال لي عادل سوف أستشير شعيب في الأمر ، و لما سألته من شعيب ؟ قال لي إنه شاب قروي يتخذ قرارات صائبة بعفوية و من غير تفكير .

– أقال ذالك ؟

– لن أتملق أحدا بالكذب على عادل .

– ماذا لو قطعت لك وعدا بأن أساعدك ؟

دخلت المرأة البدينة و وضعت أمامنا الشاي و المكسرات ، أعطتها خديجة و انتظرتْ إلى أن عادت أدراجها إلى المطبخ ثم قالت :

– هل ستساعدني في قتل ذالك الوحش ؟

– إذا اقتنعت أنه وحش قد أفعل .

– لعلك تعلم أن أبي مهووس بالأساطير التي تتحدث عن الدماء الزرقاء .

– أعلم .

– و لعلك تعلم أن زوج عمتي السيد عبد القدوس كان هو الآخر يُصدق بتلك الخرافات.

– أجل أعلم .

– و الذي لا تعلمه هو أن مصطفى تجاوز التصديق و الهوس ليصل إلى الجنون .

– إذا فهو مجنون و ليس وحش .

– إنه وحش مجنون يبحث عن الخلود بفعله لأشياء تأنف الوحوش عن القيام بها .

– مثل ماذا ؟

– أرسله والدي إلى فرنسا ليتابع دراسته الجامعية غير أنه انقطع عن الدراسة بعد سنتين و ظل بفرنسا لمدة ثمانية سنوات و عاد و قد تغيرت ملامحه و تصرفاته ، لقد أخبرني أنه عندما كان في فرنسا قام بقتل فتاتين كوتفواريتين و أخرى أكرانية ، لم أصدقه و بعدها بمدة سألني إن كنت أعرف المرأة التي تشتغل عند عائلة مجاورة لمنزل والدي ، قلت نعم فأخبرني أنه سيقوم بذبحها صبيحة يوم الأحد و ذبحت في نفس الوقت كما قال .

– بلغي عنه الشرطة .

– الذي قتل الشغالة هو خذنها و قُبِضَ عليه و اعترف ، و بعد ثلاثة أشهر أخبرني أنه سيقوم بقتل الحلاق الذي في رأس الشارع بحلول السنة الميلادية الجديدة ، و في الدقائق الأولى من السنة الجديدة تشاجر شابان مخموران في محل ذالك الحلاق المسكين الذي تدخل لفظ الشجار فتلقى طعنة عن طريق الخطأ أودت بحياته .

– ما تقولينه شيء لا يصدق .

– و أخبرني بثلاث جرائم أخرى في مدينتين مختلفتين و لا أعلم شيئا عن صحتها .

– ألهذا السبب تريدين قتله ؟

– لما تزوجت عادل امتنعت عن الكلام مع مصطفى ، و كلما التقيت به أبدل جهدا في أن لا أسمع منه شيئا ، و بعد أن حبلت بخديجة و كنت في شهري السابع وجدته ذات مساء يجلس على الدرج الذي صعدنا منه قبل قليل فتجاوزته من غير أن أكلمه ، و في الوقت الذي كنت أبحث في حقيبتي عن مفتاح الشقة قال لي سوف تلدين بنتا و سأقتلها عندما تبلغ ثمانية عشرة شهرا و بدمها سيكتب لي الخلود ، لم أستطع النوم تلك الليلة ، و بعد أن جاء عادل و أخبرته بالأمر أغتم هو الآخر ثم تصَبّر و قال لا تخافي سنقتله قبل أن تبلغ ابنتنا السنة و النصف من عمرها ، و الباقي تعرفه يا شعيب.

قلت :

– إنه لأمر غريب ، و لكنه يبقى مخالف للمنطق و أظن أن في الأمر دجل .

– أنا مثلك لا أؤمن بالخرافات و لكن مجموع القرائن يشكل دليلا ملموسا لا يمكن تجاهله .

– كم عمر خديجة الآن ؟

– سنة وشهر واحد و ثمانية أيام .

تذكرت خديجة و هي تحاول عض الصندوق ثم تذكرت صفية و هي ميتة على سريرها فقلت :

– إذا كان مصطفى هذا ينوي قتل طفلة تبلغ من العمر سنة و نصف من أجل خلد مزعوم فكلمة وحش استعارة تليق به ، غير أنه لا يمكننا تجاهل وصية عادل الأخيرة ، فلا بد أنه علم أمرا مُهِّما قبل موته .

أرادَتْ الكلام فتلعثمت و ارتبكت ، و وضعت وجهها بين كفيها و جعلت كوعيها على فخديها و لزمت السكوت . قلت :

– إذا كنت مترددة فأنصحك أن تفكري بحل آخر غير القتل .

– لقد أراد حمايتي .

– ممن ؟

رفعت رأسها .

– قبل مقتل عادل طرق مصطفى علينا الباب و عندما فتحنا قال بصوت عال : لن يستطيع أحد قتلي و بعد ثلاثة أيام ستعلمون من يكون مصطفى أمزار ، أجابه عادل بلكمة جعلته يُولي هاربا ، و بعد ثلاثة أيام قُتِل عادل .

سألتها عن مكان سكن مصطفى فأشارت بسبابتها إلى السقف ، و لما رأت نظرة الاستغراب على وجهي أوضحت لي أنه لما كان مصطفى لا يزال في فرنسا قام خليفة بتوزيع إرث زوجته على الورثة ، فأخذ شطرا من نصيب مصطفى و أرسله له على دفعات ، و ما تبقى اشترى به بقعة أرضية ، ثم أخذ نصيب سناء و بنا به منزلا على تلك البقعة و جعل الملكية بينهما مناصفة المحل التجاري الكبير و الطابق الأول لسناء ، و المحلان التجاريان الأخريان و الطابق الثاني لمصطفى ، و في ذالك الوقت لم تمانع سناء ، بل رحبت بالأمر لأنها لم تكن تعلم بالتغيير الذي طرأ على شخصية مصطفى .

فلما تزوجت بعادل رفض والدها ذالك الزواج و وقعت بينها و بينه خصومة لا تزال قائمة إلى تلك اللحظة ، فقامت برفقة عادل بتأثيث شقتها و جعلاها عشا لزوجية ، و كان عادل لا يبيت خارج البيت إلا نادرا و ذالك منذ زواجهما قبل سنتين و إلى أن قتل . أما مصطفى فبعد قدومه من فرنسا قبل ثلاثة سنوات لم يمكث في بيت العائلة إلى ستة أشهر ثم طرده والده فانتقل إلى شقته ، كما أخبرتني أنها و منذ أن قتل عادل لم تبت في شقتها و لو ليلة واحدة و أنه كلما حل المساء تحمل ابنتها و تذهب لتبيت في فندق بالبيضاء القديمة كما أنها كانت تنوي تأجير شقة مفروشة ، و عجزت بسبب إيرادات العيادة المتدينة و لذالك حاولت بيع سيارتها أو المحل التجاري .

و أخبرتني أنها لن تحتاج إلى بيع السيارة أو المحل بعد أن حصلت على تلك المجوهرات التي لا يقل ثمنها عن مائة و خمسون ألف درهم ، و لكن الذي حصل فاق التوقعات ، فقد بيعت المجوهرات بثمن خمسمائة ألف درهم ، و قد علمنا فيما بعد أنها تساوي أكثر من ذالك بكثير ، فقد كانت بها أحجار كريمة باهظة الثمن ،لم نستطع اكتشاف قيمتها الحقيقية إلا بعد أن بيعت المجوهرات بأيام .

استطعت أن أنتزع من سناء وعدا بأن لا تفكر بمصطفى و لا بقتله لمدة ثلاثة أشهر ثم لها بعد ذالك أن تفعل ما تشاء ، و اتفقت معها على اكتراء محلها التجاري بمبلغ ثمانمائة درهم شهريا ، و أقسمتْ بأن لا تأخذ مني ثمن الإيجار لمدة شهرين ، كما أنها جعلت العقد مفتوحا و لم تحدده بمدة زمنية .

العالم الحقيقي مخيف

فور عودتي من الزيارة الأولى التي قمت بها لسناء أمزار أخبرتني عمتي أن شابا ، يعمل على سيارة أجرة سأل عني مرتين ، و أنه أبلغ أنه سيعود عند الساعة الرابعة عصرا .

عند الرابعة إلا عشرة دقائق ، طرق الباب فخرجت إليه ، كان في الخامسة و الثلاثين من عمره اسمه عثمان الهواري ، حاصل على الإجازة في اللغة الفرنسية ، و يعتبر هو و أخوه رضوان الهواري من الأعضاء النشيطين داخل جماعة البر و الميزان الواسعة الانتشار في المغرب ، و قد كان أبوهما السيد عبد العظيم الهواري من قيادات الجماعة .

طلب مني أن أرافقه إلى حيث يركن سيارته التي كانت تاكسي حمراء صغيرة من نوع فيات تحمل الرقم سبعمائة و واحد و ثلاثون ، كان كلامه في غاية الهدوء و اللباقة ، مع ابتسامة تجعلك تجزم بحسن نيته ، رافقته دون تردد ، طلب مني الصعود و أخبرني أنه يجب علي أن ألتقي بسائحة كندية تنتظرني في مقهى يقع قرب باب مراكش بالبيضاء القديمة ، سألته من تكون هذه السائحة ؟ و ماذا تريد مني ؟ فأخبرني أنه في صبيحة هذا اليوم طلبت منه إحدى الموظفات التي تعمل في فندق ليالي غرناطة أن يرافق سائحة كندية إلى حي كولومبيا السيئ السمعة ، اعتذر في بادئ الأمر فأعلمته الموظفة أن السائحة لا تبحث عن الحشيش ، و إنما ترغب في لقاء أفراد عائلة شاب غرق مؤخرا لتعطيهم شيئا يخصه و طلبت منه تلك الموظفة أن يعتني بميكايلا لأنها لا تعتبرها مجرد زبونة و إنما تعتبرها صديقة عزيزة .

في حي كولومبيا سألا عن بيت حمزة المرواني فعلما أنه لا يقطنه أحد في الوقت الراهن و أن أخوه أحمد المرواني قد يكون هاجر إلى إسبانيا ، و لما سألا عن أقاربه أخبرهما أحد الجيران عن خاله خليفة أمزار ، و لكنه لا يعرف عنوانه ، و قد يحصلان عليه من الصحراوي صاحب البقالة التي تقع في مدخل الحي من جهة تجزئة السبتي ، اعتذر الصحراوي لعدم معرفته عنوان خليفة أمزار و أخبرهما أن مفاتيح بيت آل مرواني صارت عند شعيب مودود ابن أخ السيدة نعيمة ، و أن حمزة هو من سلمه المفاتيح قبل غرقه بيومين ، و ما إن علمت ميكايلا بهذه التفاصيل حتى أصرت على لقائي ، و بعد أن سألا عني مرتين طلب عثمان من ميكايلا أن تنتظر في المقهى من الساعة الرابعة إلى حدود الساعة السابعة مساءا و إن لم يحضر برفقتي قبل ذالك الوقت فسيمر ليصطحبها صبيحة اليوم التالي ليعاودا المحاولة مرة أخرى .

في المقهى كانت ميكايلا تجلس في الردهة مرتدية نظارة شمسية واضعة أمامها أربعة كتب رصت عموديا ، و قبل أن نصل إليها سألني عثمان إن كنت أجيد الفرنسية أو الإنجليزية ، أخبرته أني لا أجيد التكلم إلا باللغة العربية .

قالت ميكايلا بالفرنسية :

ــ أهذا هو شعيب ؟

قال عثمان :

– أجل ، و لكنه لا يجيد غير العربية .

لوت شفتيها باستخفاف ثم قالت :

– حسنا ، اذا كان يعلم الأسباب التي دفعت بحمزة المرواني إلى الانتحار فليخبرنا بها ، و إن لم يكن يعلم فخذ منه عنوان خليفة و أعطه مائة درهم ثمن مصاريف عودته إلى حي كولومبيا و سنتحاسب في طريقنا إلى منزل خليفة .

فهمتُ معظم كلامها و قلت قبل أن يتكلم عثمان الذي احمر وجهه خجلا من فظاظتها :

– قل لها أن تنزع النظارات أولا ، فمن الإجحاف أن تنظر إلى روحي من النافذة الوحيدة في الجسم التي يمكن من خلالها اختلاس النظر إلى روح أي مخلوق في حين تُخَمِّرُ هي نافذتها بذالك الشيء الذي يحجب النافذة و يحجب معه خلق التواضع .

قال عثمان ممتاز بالعربية ثم ترجم لها ، ظلت على حالها لم تتكلم و لم تنزع النظارات فقلت لعثمان :

– من الواجب عليك أن تعيدني إلى الموضع الذي أحضرتني منه ، أم أن تفرسي فيك أخطأ و تفكر في إعطائي المائة درهم .

– بالطبع سأعيدك إلى حي كولومبيا ، و أشكرك على روح التعاون التي أبديتها .

سألته ميكايلا ما الأمر فأخبرها أنه سيقوم بتوصيلي و يعود مباشرة ، نزعتْ النظارة و ركزت نظرها على سطح المائدة و قالت :

– حسنا ، حسنا ، أظن أن في الأمر سوء تفاهم لقد مررت بأسبوع صعب ...

نظر إلي عثمان و أشار لي بأن ألزم الصمت .

– ... قدمت إلى المغرب لأقضي شهرا ممتعا في بلد عربي من العالم الثالث ، و كان الأمر جيدا في البداية شباب وسيمين و مرحين و متملقين لا يختلفون عن أصدقائي الكنديين ، و كذالك شباب انتهازيين و بُلداء السائحة عندهم تساوي الجنس و المال . لكن الأمر تغير . حمزة المرواني أعطى صديقه حليا قد تقدر بألف و مائتان دولار و أعطى لآخر مبلغ نقدي يعادل ألف دولار أو أكثر ، و أعطاني قلادة عرضتها للبيع على الانترنت بهدف معرفة قيمتها و ليس من أجل بيعها ، فوصل ثمنها إلى خمسين ألف دولار و لا زالت المزايدة مستمرة ...

قاطعها حضور النادل ، طلب عثمان إبريق شاي متوسط الحجم و ترجم لي كل ما لم أستطع فهمه من كلامها و طلب مني بأن لا أقاطعها ، قالت :

– اخترقت كلمات حمزة روحي و عذبتها الطريقة التي مات بها ، لم يكن شخصا من العالم الثالث أو الأول لقد كان من عالم آخر مغاير تماما لعالمنا ، و كل ما احتاجه هو ثلاث ساعات ليجعلني أشعر بأن العالم الحقيقي مختلف تماما عن العالم الذي يتصوره الناس سواء في كندا أو في المغرب ، لقد جعلني أنتبه إلى أن العالم الحقيقي مخيف ، مخيف جدا .

ترجم لي عثمان و طلب منها أن تستمر في الحديث إذا ما أحبت أن تضيف شيئا آخر .

قالت :

– لقد قال حمزة أن بودلير لم يكن ليشتهر لو أنه لم يكتب قصيدة صلوات للشيطان ، و لكنه لم يصدق إلا حين قال :

أيها الألم إن الزمن يبلي الحياة

و العدو الغامض الذي ينهش قلوبنا

على دمنا المسفوح ينمو و يقوى

هل تعرف يا سيد عثمان و أنت أيضا يا سيد شعيب لقد ارتمى حمزة في جوار البحر خوفا من أن يحز ذالك العدو الغامض رأسه ، و لكن البحر خفر جواره و عجز عن حمايته ، لقد كان حمزة يتصور قوة عدوه و لجأ إلى محاولة أخيرة يائسة . ألا يخيفكم هذا ؟

سكتت و نظرت إلينا منتظرة الجواب ، ترجم لي عثمان ثم قال :

– ألا تتفق معي يا سيد شعيب أن ميكايلا كانت تتبتل في صومعة أفلاطونية قبل أن تخرجها شخصية حمزة إلى الواقع لتصطدم بحقيقة أنها جزء من الحدث و ليست صانعة له . قلت :

– صحيح ، فالعدو الذي تحدث عنه حمزة واقع و حقيقة موجودة و لم يتخيله أو يتصوره .

طلبتْ من عثمان أن يترجم لها حديثنا ففعل ، نظرت إليّ ثم إلى عثمان و قالت :

– حسب قولكما حمزة لم تقتله هواجسه و تخوفاته من أمر ما ، و أن تلك الهواجس ليست هي من جعل حمزة يقرر الانتحار ، و إنما الفاعل هو عدو حقيقي موجود بذاته مخالف لجنس البشر .

أحضر النادل الشاي و ترجم لي حمزة كلام ميكايلا في الوقت الذي بدأ فيه تهيئة الشاي على الطريقة المغربية . قلتُ:

– نحن لا نختلف أن هناك عدو ، و اختلافنا في ماهية العدو ، فأنتِ يا ميكايلا بسبب قالبك الغربي الذي يجعل لكل حادث غريب تفسيرا علميا سواء أكان هذا التفسير معقولا أو سخيفا تعتقدين أن العدو أنتجته تصورات حمزة و نحن بسبب قالبنا الشرقي الذي يجعل لكل حادث غريب تفسيرا غيبيا مسلما به سواء أكان ذاك التفسير معقولا أو منقولا نعتقد أن العدو كان موجودا في الواقع قبل أن يولد حمزة بآلاف السنين و لا يزال .

ضحكتْ ساخرة لمّا ترجم لها عثمان و قالت :

– هل تريدان مني أن أُصدق مثلا أن حمزة كانت له عداوة مع الشيطان فدفعه إلى البحر ثم فصل رأسه عن باقي جسده لأنه توعده من قبل بفعل ذالك .

قال عثمان :

– لا أنا و لا سيد شعيب نجزم أن من فصل رأس حمزة عن باقي جسده شيطان أم ملاك أم سمكة قرش ، و لكننا نعتقد بوجود الملاك و الشيطان بذوات حقيقية خاضعة لزمان و المكان تتميز بالإدراك و الإرادة ، تُؤثر بالأفعال الصادرة عنها و تَتأثر بالأفعال الواردة إليه تماما كما نعتقد بوجود القرش .

قدم عثمان أكواب الشاي و ترجم لي ثم تساءل إن كنت أتفق معه ، حركت رأسي إيجابا ، قالتْ :

– القرش موجود بالفعل في البحر .

قالَ :

– و الشيطان ؟

قالتْ :

– لا يوجد إلا في عقولنا .

قال :

– تماما ، فالقرش يسبح في البحر و الشيطان يسبح في العقل و إذا عجزنا عن إثبات وجود الشيطان فحتما سنعجز عن إثبات وجود العقل ، و إذا سلمنا بوجود العقل دون الارتكاز على دليل حسي ملموس فلا يوجد أي مانع من أن نسلم بوجود الشيطان دون الارتكاز على دليل ملموس.

بعد الترجمة تذكرت السيد عبد القدوس فقلت :

– صدق غوته الدهماء لا يشعرون بوجود الشيطان حتى و لو أمسك بمخنقهم .

قال عثمان : جيد ، ثم ترجم لها ، قالت متعجبة :

– هل قالها فعلا ؟

قلت :

– راجعي فاوست .

قال عثمان :

– ما هو ذالك الشيء الذي تريدين إيصاله لعائلة المرواني .

قالتْ :

– القلادة أظن أن حمزة لم يكن يعلم ثمنها الحقيقي .

قلت :

– أخبرها أن القلادة صارت لها و يمكنها أن تفعل بها ما تريد ، و لو أنها تصادف و التقت خليفة أمزار خال حمزة لأخذها منها بلباقة و كياسة ، و إنني أعلم يقينا أن حمزة كان يُفضِل أن تختفي القلادة مع رأسه على أن تقع في يد خاله .

قبلت ميكايلا توجيهي و قررت الاحتفاظ بالقلادة ، استأذنت في الانصراف و هممتُ بدفع ثمن الشاي و لكن عثمان أقسم أن يدفع لأنه هو من طلبه ، و أخبرني أنه لن يتضرر ماديا إذا ما أوصلني إلى حي كولومبيا لأنه جعل التاكسي ذاك اليوم في خدمة ميكايلا من الساعة التاسعة صباحا إلى الساعة السابعة مساءا مقابل مبلغ ألف درهم ، أعربت ميكايلا عن رغبتها في مرافقتنا لم نمانع ، و في الطريق هممت بأن أخبرها عن شيء و لو بسيط من الحوادث التي وقعت لي منذ أن تعرفت على آل مرواني غير أني تراجعت و قلت في قرارة نفسي ليس كل ما يعرف يقال .

و في المقابل تحدثنا طيلة الطريق عن تناقض الإنسان الغربي الذي يعيش مادية هستيرية في عالم مادي محموم ، و عندما يتعلق الأمر بالغيبيات فإنه يفسرها تفسيرا يعتمد على المثالية الذاتية ، و الغريب في الأمر هو تغلب الأنا الإبليسية على معتقدات المتدينين منهم و أصبح المسيحيون الحقيقيون في الغرب مع ندرتهم أسوأ حالا من أسلافهم في زمن نيرون ، و لا تنظر إلى أجسامهم المنعمة و لكن تأمل أرواحهم كيف تعاني .

ظننتُ أن لقائي بميكايلا السائحة الكندية و عثمان الهواري الشاب المثقف كانت تجربة طيبة و عابرة ، و لكن ما حدث هو أنه بعد ثمانية و أربعين ساعة فقط التقينا مجددا و ناقشنا أمر القلادة بعدما تعرضت ميكايلا و على طريقة أفلام جيمس بوند لتهديد بالقتل .

العدو الغامض يتربص بك

انتهى الموسم الدراسي لسنة ثمانية و تسعون تسعمائة و ألف تسعة و تسعون تسعمائة و ألف في نفس اليوم الذي التقيت فيه بسناء أمزار ثم بمكايلا و عثمان ، علمت صبيحة اليوم التالي بنبإ رسوبي الذي كان متوقعا نتيجة الصدام الذي حصل مع الأستاذ الخاول و كثرة الغياب و منه ما هو مبرر بشواهد طبية كنت أحصل عليها مقابل مبلغ خمسين درهم ، و بانتهاء الموسم الدراسي بقيت أمامي عشرون يوما لحفل الزفاف الذي حدد يوم العاشر من يونيو .

حصلت على النتيجة و اتجهت مباشرة إلى شارع الزرقطوني و التقيت بسناء في المكان الذي حددناه مسبقا ، كانت برفقة المرأة البدينة التي كانت تلاعب خديجة في المقاعد الخلفية للسيارة، اتجهنا أولا إلى درب السلطان حيث باعت سناء مجوهرات خديجة و استلمت الثمن نقدا . ثم رافقتها إلى وكالتها البنكية و انتظرتها إلى أن أودعت المال ، و من ثَم توجهنا إلى مصلحة تصحيح الإمضاءات و وقعنا عقد كراء المحل التجاري و استلمت المفاتيح ، ثم أوصلتني إلى حدود تجزئة السبتي .

قمت بعدها باستئجار سيارة نقل و طلبت من مبارك ابن عمتي الذي كان قد مضى على خروجه من السجن ثمانية أيام أن يساعدني في نقل تلك الأشياء التي لا تزال في بيت المرواني إلى الحي الحسني ، وافق على مضض ، وذالك أنه تقوقع على نفسه منذ أن خرج من السجن و لم يغادر البيت إلا مرة واحدة حضر فيها صلاة العشاء في المسجد و بعدها لم يُرى لا خارج البيت و لا مصليا ، لمّا دخلنا بيت آل مرواني جلس في ركن من البيت الخالي و شرع في البكاء شعرتُ بحزنه على آل مرواني و خصوصا عادل ، لقد سببتْ له الشهور الستة التي قضاها في السجن من أجل شجار لا ناقة له فيه و لا جمل بالإضافة إلى خبر مقتل عادل صدمة نفسية جعلته يميل إلى العزلة .

أردت أن أنبهه إلى أن ما حدث ليست نقطة نهايته و إنما هو منعطف ، و هو من عليه أن يدير الدفة :

– هل تبكي على ضياع الحشيش المجاني ؟

كفكف دموعه و قال :

– الحشيش لم يكن مفقودا في حي كولومبيا عندما كان آل مرواني يقطنون في الوازيس ، و سيبقى كذالك جيلا بعد جيل . لقد أقلعتُ عن جميع المخدرات .

– ليس من الصعب أن تُقلع و لكن الصعب هو تحديد الأسباب التي جعلتك تقلع ، لعلها تكون نفس النزوة العاطفية التي جعلتك تتقوقع على نفسك .

نهض و قال :

– أين هي تلك الأشياء التي تريد نقلها فلا رغبة لي في الإصغاء إلى برنامج ركن المفتي .

نقلنا الكتب و كرسي السيد عبد القدوس ، و في ما كنا ننقل سرير صفية سقط من بين تلافيف اللحاء دفتر بغلاف أصفر ، قمت بوضعه بين الكتب .

كان طول المحل عشرة أمتار و عرضه أربعة ، فتحت درفات الباب الأربعة ، و لما انتهينا من إنزال الأشياء و وضعها بوسطه و عاد مبارك مع صاحب سيارة النقل بعد أن أديتُ إليه ما اتفقنا عليه أغلقت باب المحل و تركتُ درفة واحدة مفتوحة ، أضأت المصباح و شرعت في كنس الأرضية ثم وضبتُ تلك الأشياء ، انتهيت عند الساعة الرابعة عصرا ، بحثتُ بين الكتب عن الدفتر صاحب الغلاف الأصفر و جلست على السرير . كانت مذكرات صفية ، نظرت إلى آخر ما كتبتْ فقرأتُ .

لقد رأيت والدي في المنام ، كان يحتضن أخي عادل بذراع و يفتح لي الأخرى و قد أولتها أني سألحق به ، و أتمنى أن تكون رؤيتي لعادل في الحلم ترمز إلى شدة حزنه على وفاة أبي و ليس أن عادل سيسبق إلى اللحاق به . و أظن أن الموت و إن كان مكروها عندي يبقى قنطرة ضرورية يجب على كل مخلوق حي أن يعبرها ليكتشف صحة أو زيف ما كان يعتقده ، و بما أن ملامح والدي في المنام كانت تُعبر عن السرور فإني أعتقد أنه جاء ليبشرني بالموت و ليس لينذرني منه ، و إذا طاوعتُ نفسي و اعتبرت تلك الرؤية أضغاث أحلام فسيكون ذالك تصرفا سفيها ، لأنه من السخافة أن أفر من أمر حتمي سواء وقع في العاجل أو في الآجل . لقد كانت في نفسي جملة من الرغبات و الأمنيات تتصارع مع إحساسي بالمسؤولية و معرفتي التامة بواقعي الدنيوي الذي لم يكن أخضرا في يوم من الأيام . الموت تجربة لن تكون ممتعة و كل ما أرجوه من الله سبحانه و تعالى هو أن أموت أثناء النوم حتى لا أتعذب ، و سأحرص على أن أصلي قبل النوم في ما بقي لي من أيام .

تذكرتُ منظرها و هي ميتة على سريرها فسرت في جسمي قشعريرة مشابهة للتي شعرت بها في المرة السابقة ، وضعت الدفتر و خرجت إلى الشارع و بقيت واقفا لحوالي ربع ساعة ، ثم دخلت و فتحت الدفتر مجددا ، لم أحدد صفحة معينة ، قرأت .

خرج قبل قليل أخي عادل و منير بعد أن تعشينا معا و تذكرنا ذالك اليوم الذي زارنا فيه خالي خليفة أوّل مرة بعد انتقالنا إلى حي كولومبيا ، و كيف تعرض للسرقة تحت تهديد السلاح، لقد سلبوه كل شيء حتى سترته و حذائه ، و بعد أن علم الفاعلون أنه ضيفنا أعادوا الحذاء و السترة ، كان عادل يتذكر منظره و هو حافي و يضحك ، قال أن اللصوص اعتذروا من حمزة بأنهم لم يعلموا أنه خاله إلا بعد أن صرفوا نقوده التي سرقوها منه و أنهم باعوا الساعة مباشرة بعد سرقته و لم يرجعوها هي الأخرى ، صفع حمزة واحدا منهم و قال له ما كان عليك أن تعيد الحذاء و السترة فخالي يستحق أن يعود لبيته حافيا قال اللص أبشر سننتظره إلى أن يخرج و نسلبه كل شيء حتى سرواله الداخلي ، ضحك حمزة و قال لا ليس بعد الآن و حذرهم من التعرض مجددا لأي ضيف يزور بيت المرواني .

كان عادل يتحدث و دموعه تسيل من الضحك ، لقد ضحكتُ أنا أيضا كما لم أضحك من قبل ، أما منير فهو مقتصد في الضحك و الكلام دائما .

منذ أن عقلت و منير فرد من الأسرة ، لم يرفض لي طلبا قط و لم يطلب مني أي شيء طيلة حياته ، و لا يوجد رجل في هذه الدنيا من أقصاها إلى أدناها يجعلني أشعر أني أنثى إلا منير على الرغم من أنه لا ينظر إليَّ بتاتا و إذا ما تصادف و أن التقت أبصارنا فإنه يغض بصره عني فورا ، أنا أعرف أن تصرفاته معي يمكن أن تكون شفقة ، و يمكن أن تكون احترام و إجلال ، و لكن فترة

العشاء الممتعة التي قضيناها قبل قليل فتحت شهيتي للتخيلات ، فلا بأس أن أتخيل أن منير مغرم بي ، و أنه كلما آوى إلى فراشه تصفح جميع صوري التي تسمح ذاكرته باسترجاعها ذهنيا ، و أنه لا يمنعه من الإفصاح عن شعوره إلا خوفه من ردة فعلي ، و لا بأس أن أتخيل أيضا أن منير تقدم لخطبتي فرفضت في بادئ الأمر ثم وافقت بعد توسلاته المصحوبة بالدموع و بأمرٍ من والدي لم يترك لي مجالا لمزيد من التذلل . و أنني رفضت أن أنام بجانبه ليلة الزفاف فنام على الأرض دون تذمر، و أنه كان يرفض فكرة الحمل تماما لخوفه على صحتي ، و أنه يكتب لي قصائد شعرية يعبر فيها عن حبه لزوجته التي هي أنا ، صحيح أنها قصائد ركيكة لا تشبه رسوماته المتقنة و لكنها تُشعرني بالسعادة . وأنه همس في أذني أن ألذ ما تذوقه في حياته هو طعم أحمر الشفاه الذي أضعه . و أنني سألته عن ردة فعله إذا ما أصررت على رفضي الزواج منه فقال أنه كان سيخطفني عندها و لما سألته ماذا كان سيفعل إذا ما تزوجت شخصا آخر غيره غضب و رفض الإجابة ، فبدلت السؤال و قلت و ماذا ستفعل إذا ما مت ، فأخبرني أنه سيبقى وفيا لي إلى أن يلحق بي .

إنها تخيلات مصدرها صفية الأنثى التي تقبع في الوادي العميق من أحشائي ، تخيلات نبعت من بئر العواطف المنضبطة و الملذات الملجمة بميزان العقل الواقعي و نطاق الفطرة السليمة ، تخيلات سخيفة لكنها تعجبني . و لو لم أكن أعلم أني سأحرق هذا الدفتر إذا ما امتلأ كما فعلت بأسلافه ما كنت لأكتبها .

توقفتُ عن القراءة مباشرة بعد أن قرأت الجملة الأخيرة ثم توجهت إلى أقرب بقال و اشتريت ولاعة ، و عمدت إلى الدفتر فنزعت عنه غلافه ثم أحرقته ، كنت أجلس على سرير صفية و أنظر إلى مذكراتها و هي تحترق . فكرت في أن أستريح قليلا قبل العودة إلى حي كولومبيا فاستلقيت على ظهري و رحت أنظر إلى السقف و أخمن فيما إذا كانت صفية ستقبل باستعمالي لسريرها أم لا و حينها يستوجب علي حرقه كما فعلت بدفتر الذكريات . غفوتُ فرأيت صفية ، كانت عابسة قالت :

– ما كان ينبغي لك أن تقرأ مذكراتي .

قلت :

– لقد أخطأت ، و الحنين إلى الحديث معك هو ما دفعني إلى التطفل .

– لو أنك أتممت قراءة الدفتر لما فكرت بزيارتك .

– و لكنك ميتة !

– الموت لا يعني الاقتحام في العدم ، و إنما هو انتقال و عبور .

– و هل تمانعين إذا ما استعملت سريرك ؟

– لا أمانع ، و لكن يجب أن تعلم أنه لا يزال يحتفظ بآثار من شخصيتي .

– لم أفهم !

– الفراش و اللباس و كل الأشياء القابلة للمس باستثناء الذهب و الفضة تتشرب جزءا من شخصية مستعملها و قد تبقى حتى بعد موته و تُؤثر في لامسها الجديد .

– و ما نوع هذا التأثير ؟

– الأمر معقد ، و لكن إذا مثلناه سيصير بسيطا ، لنفترض أن شابا قدم من مكان محافظ و حل في مكان تتجول فيه النساء شبه عاريات فأطلق بصره ذات اليمين و ذات الشمال ، ثم جلس على مقعد معين و هو يشعر بشبق شديد ، لقد جعله شبقه الشديد لا ينتبه إلى التأثير الضئيل الذي خلفه من كان يجلس على المقعد قبله ، و بعد أن قام من على المقعد جلست شابة عليه و لأنها كانت خالية البال نسبيا فقد استطاع الأثر الذي خلفه الشاب الشبق على المقعد أن يثيرها و يجعلها تنظر إلى الرجال بشهوانية .

– إذا فهو تشرب للمشاعر .

– بل تشرب للحالات ، فالفتاة لم تتشرب من المقعد شعور الشبق و لكنها تشربت حالة الشبق .

– يمكننا اعتبارها عدوى ، و منه نستطيع أن نقول أن الكذاب قد يعديني بكذبه و المتكبر بكبره و الجبان بجبنه و أشباه ذالك إذا ما استعملت أنا و هم نفس الأشياء الملموسة .

– و لهذا يجب عليك أن لا تتشارك معهم الأشياء الحسية ما استطعت ، أما الآن فيجب عليك أن تستيقظ .

– لماذا ؟

– لأن العدو الغامض يتربص بك .

فتحت عيني فوجدت شخصا يقف بجانب السرير و ينظر إلي ، كان نحيفا و طويلا و وجهه شبه مستطيل تعلوه جبهة عريضة ، فمه ضيق و عيناه كبيرتان و غائرتان تحيط بهما هالة سوداء ظننتها في الوهلة إطار نظارات .

يستحيل أن تُدفن الأسرار مع الجثث

كان ذالك هو لقائي الأول و الأخير بمصطفى أمزار ، لم أنزعج لتواجده المريب داخل المحل دون استئذان ، لأني استيقظت من غفوتي و ذهني لا يزال يحاول استيعاب كلام صفية ، قعدت و قلت :

– هل اشتممت رائحة خطرٍ يا مصطفى ؟

– صحيح ، لقد شعرت بالضيق قبل ساعة تقريبا ، و كادت روحي أن تفارق جسدي بسبب شعور غريب لم أستطع أن أحدد سببه .

– عليك الاستعداد لأني أنوي التخلص منك .

– و هل ستستطيع ؟

– أجل ، و أعتقد أني لن أندم .

لوا عنقه باتجاه كتفه الأيسر بحركة شبيهة بحركة الربوت ثم قال :

– هل أفهم من كلامك أنك قاتل مأجور متقن لفن القتل بالرصاص الأسود ؟

لم أكن أعرف حينها ما هو فن القتل بالرصاص الأسود ، تجاهلت المصطلح و قلت :

– ليس بالضبط ؟

– و هل تفكر بقتلي عن طريق استهداف جسدي يا مغفل ؟

– إذا كان قتل الأطفال قمة الوحشية فقتل قاتل الأطفال قمة الإنسانية و سأجد الطريقة المناسبة لفعل ذالك ، صدقني ؟

– أنت مبتدئ و انصياعك لسناء سيقودك إلى الموت ، لا بل قادك للموت .

نهضت من على السرير و جلست على كرسي السيد عبد القدوس، اتكأت إلى الخلف و مددت رجلي اليسرى و وضعت فوقها اليمنى و تمثلت بقول الشاعر :

و لستُ بنحويٍ يلوك لسانه

و لكن سليقي أقول فأعرب

ثم قلت :

– و هذا هو الفرق بيني و بينك يا مصطفى فأنت تتمرن لتصبح محاربا أما أنا فقد ولدت محاربا ، واعلم أني متى أضع العمامة يتبخر مصطفى أمزار ، وعندها لن يكون عندك الوقت الكافي لتعرفني .

تراجع إلى الخلف من غير أن يدير ظهره لي و لما صار على عتبة الباب قال :

– لا أعرف سنك الحقيقي و من دون شك أنت أكبر مما تبدو عليه بكثير، و كذالك فإني لا أجيد الكلام مثلك ، و لحسن الحظ أن الحرب تحتاج أفعالا و ليس أقوالا مجردة ، و بعد عشرين يوما ستتيقن أني صاحب أفعال بامتياز و ذالك عندما يتحول العرس إلى جنازة .

شعرت بغضب شديد و نظرتُ إليه على أنه أحقر مخلوق على وجه البسيطة ، و قلت في نفسي حسنا أفعال لا أقوال ، ثم أفردت أصبعي الوسطى عن باقي أصابع يدي اليمنى و أريته إياها ، ضرب درفة الباب المفتوحة بكف يده اليسرى فارتج الباب بقوة ، مما جعل المارة ينظرون اتجاه المحل ثم هرول بعيد عن نظري .

هكذا غادر مصطفى أمزار محلي إلى الأبد ، أغمضت عيني و قلت أخاطب نفسي بصوت مسموع ذبابة بغيضة و طارت بعيدا ، سمعتُ السيد عبد القدوس يهمس في أذني (الماء البارد) قفزت من على مقعدي و جلت ببصري في جميع أنحاء المحل لم يكن هناك أحد قلت :

– ماذا ؟

لا جواب ، رجعت و جلست على الكرسي و قلت مجددا :

– أهذا أنت سيد عبد القدوس ؟

لم يكن هناك غير الصمت ، بعد عدة محاولات غادرتُ المحل بعدما أحكمت إغلاقه ، سألني أحد الجيران هل اشتريت المحل من آل أمزار ؟ أخبرته أني استأجرته و انوي أن أجعل منه وراقة ، أعجبته الفكرة لأنه كان يخشى أن يجاوره من يمتهن حرفة النجارة أو الحدادة أو غيرها من الحرف التي تصدر ضجيجا لا يطاق على حسب قوله .

أثناء العشاء اثنت عمتي على القرار الذي اتخذته في إنشاء مشروعي الخاص في الحي الحسني لأنه يعتبر من الأماكن التي تمتاز برواج كبير بالبيضاء ، كما تحدثت عن حفل الزفاف و عن رغبتها في السفر إلى القرية قبل موعده بثلاثة أيام ، و أكدت لي أن مبارك سيلحق بها صبيحة يوم الحفل ، و فيما كانت تتكلم كنت أتساءل في قرارة نفسي هل فعلا سمعتُ السيد عبد القدوس يقول (الماء البارد) أم أنها كانت مجرد تخيلات .

نمت تلك الليلة في الوقت المعتاد ، وبحلول الساعة الثانية صباحا استيقظت مفزوعا ، فقد حلمت أني أنا هو حسن الجوش و أني استطعت بمساعدة ثلاثة من أصحابي أن أقنع سائحا فرنسيا مهتما بالتراث المغربي القديم أن المدافع الأثرية الموضوعة على السور القديم لمدينة آسفي معروضة للبيع و أن السور بأكمله معرض مفتوح ، و بعته ثلاثة من المدافع بمبلغ ثلاثين ألف دولار و أخذت منه مبلغ خمسة آلاف دولار عربون على أن يسلمني الباقي عندما نشحن المدافع على الشاحنة التي سيحضرها صبيحة اليوم التالي ، و بعد أن أحضر الشاحنة لم يجدنا هناك و علم أنه تعرض للاحتيال و أنه إذا ما حاول تحريك المدافع فسيتعرض للمحاسبة القانونية لأنها من التراث المسجل لدى اليونسكو .

جلست أنا و أصحابي في معمل قديم مهجور بجوار معمل ساردیکس لتعليب السردين على الطريق المؤدية لبلدة الصويرية ، احتسينا الخمر و احتفلنا بنجاح عملية الاحتيال ، طلب مني الرفقاء تقسيم

الأموال ، أعطيت لكل واحد منهم مبلغ ألف دولار و احتفظت بألفي دولار ، طلبوا مني أن آخذ ألف دولار و أقسم الألف المتبقي بيننا بالتساوي ، رفضتُ لأني صاحب الفكرة و منفذها الرئيسي ، فتطور الأمر إلى سباب و تهديد ثم و مع حالة السكر السائدة إلى جر و دفع و صفع و لكم ، ضربتُ أحد خصومي بقنينة خمر فارغة على صدغه الأيسر فتناثر الزجاج في كل مكان و سقط غريمي أرضا و ابتعد الآخران ، تناول أحدهما حجرا بحجم كرة اليد بكلتا يديه و رماني بها ، حاولت تفاديها بالاستدارة جانبا غير أنها أصابت خاصرتي ، حاولت أن أظل واقفا ، لم أستطع فاستلقيت على الأرض و أنا عاجز عن سماع ما يدور حولي و عاجز عن التنفس ثم بدأت تسري في جسدي البرودة و في محيطي الظلام ، فأدركت أني أحتضر.

بعد أن استيقظت تلمست أطرافي فوجدتها باردة ، قلت هذا سيء و بقيت في فراشي إلى أن هدأت دقات قلبي ، ثم قمت مباشرة إلى المرحاض و أنا أردد الماء البارد، الماء البارد، نزعت ثيابي ، وجدت على جسمي كدمة سوداء تميل إلى الزرقة في نفس المكان الذي أصابني فيه الحجر في الحلم ، جلستُ محتبيا تحت الصنبور بعد أن فتحته على آخره ، ظللت على تلك الحال لمدة دقيقتين أو ثلاث ، و لما هممت بارتداء ثيابي تفقدت الكدمة فوجدتها قد اختفت و كأنها كانت محض أوهام ، نمت بعد ذالك نوما هادئا و لم استيقظ إلا في حدود الساعة التاسعة صباحا ، تناولت فطوري على عجل و اتجهت إلى درب عمر للقاء السيد عبد المالك شرواط .

التقيت بعد ثمانية أشهر من ذالك الحلم بأشخاص من مدينة آسفي و أكدوا لي أنه بالفعل وقعت في مدينة آسفي جريمة قتل في شهر مايو الفائت كان ضحيتها شاب يدعى حسن الجوش ، وبتفاصيل متطابقة مع ما رأيته في الحلم .

يملك السيد عبد المالك شرواط محلا تجاريا بدرب عمر يبيع فيه الأثواب بالجملة ، رحب بي و طلب من مساعده إحضار الشاي و المكسرات ، أخبرته عن زيارتي للحسين شرواط في السجن و عن لقائي الأخير بمنير و ضحك لما قلتُ له أبو القرون ثم أخبرني أنه لما كان عمر منير أربع سنوات أحضر له لعبة على شكل رجل له رأس كبش بقرون كبيرة ، أخافته تلك اللعبة و ظل يبكي إلى أن أعادها عبد المالك معه فكان كلما زارهم يسأله منير عن أبي القرون فإذا قال له هل أحضره لك يقول لا .

قال أنه يصدقني من دون الحاجة إلى إثبات لأن أخوه السيد الحسين أخبره عن زيارتي له في السجن و قد أثنى عليّ خيرا ، ثم أخبرني أن وصية أخيه هي سرد تاريخ الأسرة على منير باعتباره خليفة الحسين في منصبه كخادم لآل مرواني ، و بما أن فرع آل مرواني انتهى منذ أن انشق السيد عبد القدوس عن العائلة الأصل فإن هذا التوريث لم يعد ضروريا .

و قد استطعت أن أستخلص من سرده المختصر أنه منذ أن وُجد آل مرواني كفرع من شجرة قديمة جذورها تضرب عميقا في الأرض وُجِدَ معهم آل شرواط كخدم و أُمناء ، و أن الخدمة تقتصر على الابن البكر الذي يتلقى كافة المعارف التي تؤهله لهذه الخدمة ، في حين ينصرف بقية الأبناء إلى شؤونهم الحياتية المختلفة ، و أن أبوهم كان في خدمة والدا السيد عبد القدوس عبد المجيد المرواني و طامو المرواني اللذان كانا أخوين توأم ، فالأسرة و إن كانت لا تبدُ في ظاهرها مختلفة عن الأسر المغربية إلا أنها كانت تمارس شعائر و طقوس مختلفة تماما عما تعارف عليه الناس . و أخبرني أنه يشترط في الخادم التكتم و الوفاء و أنه غالبا ما ينتهي نسل الخادم بانتهاء نسل الفرع الذي يخدمه ، و أن السيد الحسين كان سعيدا بانشقاق السيد عبد القدوس عن الجذع الأصل .

ثم توقف فجأة عن الكلام و كأنه انتبه إلى أنه تكلم أكثر مما ينبغي ، قلت :

– هل تعرف لماذا قُتلت السيدة خديجة أمزار ؟

طلب من مساعده الذي كان يجري بعض الحسابات بالقرب منا أن يعاون باقي المساعدين في التفاوض مع الزبناء ثم اقترب مني و قال :

– في زيارتي الأخيرة لأخي أخبرني أنه في الوقت الذي كان فيه في خدمة عبد المجيد المرواني كان يتألم كثيرا عند معاينته و إشرافه على تلك الطقوس و الشعائر الملعونة ، و بعد أن مات العجوزين تغير الأمر تدريجيا مع السيد عبد القدوس و من دون مشاكل ، غير أن قتل السيدة خديجة بنفس الطريقة التي قتل بها أشرف الميلودي الذي ثبت تورطه في مقتل عبد المجيد و طامو سيبقى لغزا يتمنى إجابة عنه إلى آخر يوم في حياته .

قلت :

– و قد مات دون معرفة الإجابة ؟

قال :

– للأسف ، فسبب مقتل السيدة خديجة سر دفن مع السيد عبد القدوس ؟

قلت :

– يستحيل أن تُدفن الأسرار مع الجثث .

لا بأس أن تعلم أنها مخطوطة

طلب مني السيد عبد المالك أن أخبر منير بأنه مستعد لإعطائه كل ما يطلبه من أموال ، على شرط أن لا يتجاوز الطلب ثلث ممتلكاته .

استقليت خط النقل رقم عشرين الذي كان حينذاك تابعا لشركة حافلات الراحة من درب عمر إلى الحي الحسني مباشرة ، اشتريت ساندويتش و مشروبا غازيا ، تناولتهم داخل المحل ، ثم جلست على كرسي السيد عبد القدوس و شرعتُ في قراءة رائعة دي سان بيار« بول و فرجيني » بترجمة المنفلوطي إلى أن غلبني النوم ، سمعت صوتا ينادي عليَّ دميان ثلاث مرات ، فتحتُ عيني ، وجدتُ مبارك يقف أمامي سألته :

– هل ندهتَ عليّ و بماذا ؟

– ندهتُ عليك شعيب مرتان و استيقظت عند الثالثة .

– ما الأمر ؟

– هناك فتاة شقراء حسناء برفقة سائق سيارة أجرة أصرا على أن أدلهما على مكانك .

– أين هما ؟

– في الخارج .

خرجت إليهما وطلبت منهما الدخول ففعلا بعدما أعطى عثمان مبلغ مائتي درهم لمبارك كان قد اتفق معه عليها مسبقا مقابل أن يصطحبهما إلى مكان تواجدي .

كانت ميكايلا شاحبة و مفزوعة ، و كأنها تترقب خطبا ما ، جلسا على سرير صفية ، أدرت الكرسي إلى أن صرت مقابلا لهما و نظرتُ إلى عثمان مستفهما ، فأخبرني أنه بعد أن افترقنا ذالك اليوم عادت ميكايلا إلى غرفتها و استعملت الانترنت الخاصة بالفندق في الإطلاع على الأخبار المتعلقة بقلادة حمزة المعروضة للبيع ، و لأنها لم تضع رقم هاتف عندما عرضتها للبيع فقد وصلتها عدة رسائل على بريدها الإلكتروني كانت معظمها من أشخاص يطلبون معاينة القلادة للتأكد من أنها أصلية .

و من بين تلك الرسائل كانت هناك واحدة غامضة كُتِبَ فيها (لقد حصلت على القلادة من دون عناء و مبلغ أربعمائة ألف دولار أكثر من جيد بالنسبة إليك يا آنسة ميكايلا) ، في اليوم التالي اتصلت بي و سألتني ان كانت لي علاقة بتلك الرسالة أجبتها بالنفي فلمحت إلى إمكانية تورطك أنت في المسألة ، أكدت لها بالإضافة إلى أنك لا تجيد الفرنسية يستحيل أن تقومَ بتلك المزحة ، قامت بإلغاء عرض بيع القلادة و حذفت الإعلان، و في صباح هذا اليوم استيقظت عند الساعة السابعة صباحا لتجد رجلا أشقرا ضخم الجسم يضع كفه اليمنى على فمها و يمسك كلتا يديها بيده اليسرى ، حاولتْ التفلت و الصراخ ، كانت قوته كبيرة و يستحيل أن تنجح في التغلب عليه فأذعنت و سكنت ، قال لها بالإنجليزية :

– القلادة في حقيبتك أليس كذالك ؟

أومأت بالإيجاب .

– كان يجب عليك أن لا تعرضيها للبيع ما دمت تنوين الاحتفاظ بها ، و إن تابعتِ لعب الصبيان هذا فعلى الأرجح سينتهي بك الأمر جثة من دون رأس كما حصل مع حمزة المرواني و الآن أغمضي عينيك و نامي ساعة أخرى و إياكِ أن تلجئي إلى الشرطة .

أغمضت عينيها و ظلت ترتعد لمدة ساعة أو تزيد ، ثم فتحت عينيها بحذر كان ذالك الشخص قد اختفى، عاينت قفل الباب وجدته مغلقا من الداخل و كذالك النافذة الوحيدة التي كانت بالغرفة و الغريب هو أنها وجدت القلادة لا تزال في حقيبتها ، اتصلت بي و طلبت مني توصيلها إلى القنصلية الكندية ، انتظرتها لحوالي ساعتين ، و بعد خروجها لاحظت أنها مرتبكة فسألتها عن الوجهة قالت: حي كولومبيا و في طريق أخبرتني أنها لما حكت للقنصل عن الحادث الذي وقع لها وعن التهديد الذي تلقته أجرى بضعة اتصالات ثم عاد ليستفسر منها عن مزيد من المعلومات ، إلى أن رن هاتف مكتبه ، رفع السماعة و ظل ينصت و ينظر إليها في نفس الوقت و قد تغيرت ملامحه ثم قال حاضر، وأغلق الخط .

طلب منها أن تظل في مكتبه إلى أن تلتقي بشخص سيحضر خصيصا من أجلها ، و تمنى لها أن لا تكون قد تورطت في أمر قد يسبب لها الأذى ، و ألغى جميع مواعيده ، بعد حوالي ساعة و نصف دخل مكتب القنصل رجل شاب و امرأة في حوالي الخمسين من عمرها و طلبا من القنصل أن يتركهم لبعض الوقت قالت المرأة من دون أي مقدمات :

– آنسة ميكايلا موران بما أن والدك طبيب نفسي مشهور في كندا فمن الجيد أنك لجأتِ إلى القنصلية ، لأننا في الوقت الراهن لا نحتاج إلى أي ضجة في كندا ، و أُحب أن أعلمك أن الوقت الذي نقضيه معك الآن اقتطعناه من مهمات أكبر من مشكلتك بكثير،لذالك أرجو منك أن تصدقيني القول و تخبريني إذا ما كان حمزة المرواني أعطاك شيئا آخر غير القلادة .

أجابتها ميكايلا بالنفي فسألتها إذا ما كان حمزة أخبرها عن ماهية تلك القلادة فأعادت نفس الجواب ، أنهت السيدة الزيارة على الفور بعدما أكدت لميكايلا أنه لا خوف على حياتها و أن الأمر له علاقة بتجارة الآثار في السوق السوداء ، و قبل أن يغادرا مكتب القنصل قالت المرأة الخمسينية لميكايلا :

– لقد أعلمنا أصدقائنا المغاربة أنك ستكونين بأمان إذا ما تعاونت مع شعيب مودود .

أنهى عثمان سرد الأحداث ، نظرت إلى ميكايلا كانت مرعوبة و تنظر صوب درفة الباب المفتوحة ، طلبت من عثمان أن يخبرها أننا جميعا نكره الموت ، ولكن ليس بوسع أي أحد منا أن يؤجل موعده أو كيفيته ، سألني عثمان إذا ما كنت أستطيع المساعدة ، و ما معنى أن يذكر اسمي في القنصلية الكندية ، أخبرته أني أستطيع المساعدة و لا علم لي بما حدث في القنصلية .

صرفتُ النجار الذي كنت قد حددت معه وقت العصر كموعد لإجراء القياسات اللازمة لإنشاء رفوف على جدران المحل فورَ وصوله ، ثم قلت لعثمان :

– نحتاج لهاتف .

قال :

– ميكايلا تملك واحدا نقالا ؟

أخرجته من حقيبتها ، كان من نوع سيمانس الباهظ الثمن حينها ، أمسكتُهُ و قلت :

– بعد عرضك القلادة للبيع سيكون من الصعب عليك الاحتفاظ بها ، و الحل الأمثل هو أن تبيعيها بالثمن الذي تحددين .

قالت لعثمان بعد الترجمة :

– أخبره أني لا أهتم لا بالقلادة و لا بالمال ، و كل ما يهمني هو سلامتي .

بحثت بين الكتب عن رواية دميان ثم اتصلت بالرقم الذي سبق و أن دونته على غلافها و بعد أربع رنات فتح الخط و كان الجواب :

– سنعاود الاتصال بك سيد شعيب أبقي الهاتف معك .

أغلق الخط ، صُدمت لنطقه اسمي فالهاتف يخص ميكايلا ، حاولت إعادة الاتصال عدة مرات و لم أنجح لأن الخط كان مغلقا ، بعد نصف ساعة قضيناها في الترقب رن الهاتف ، فتحت الخط قلت :

– هل يمكنك أن تخبرني كيف عرفت أني المتصل ؟

أجابني صوت مغاير للصوت الأول كان صوتا هادئا و متزنا ، قال :

– لأن الرقم الذي اتصلت به مخصص لك وحدك ، فأمام موظفنا ما يزيد عن مائة و سبعين خط ، نادرا ما يرن أحدها ، و اليوم رن الهاتف المخصص لشعيب مودود .

– و هل تعرف سبب اتصالي بكم ؟

– إن لم تكن اتصلت بنا من أجل بيع المخطوطة فستكون في ورطة حقيقية .

– هذا ممتاز ، لم أكن أعلم أنها مخطوطة .

– لا بأس أن تعلم أنها مخطوطة و أنها تعود لشخص يعتبر من أوائل المتلقين من هاروت و ماروت .

– أعتذر يا سيد فأنا لا أفكر ببيعها في الوقت الراهن .

– لقد أخطأت عندما اتصلت ما دمت لا تنوي البيع .

– لقد اتصلت و أنا أنوي البيع .

– هل تعرف ثمن المزاح معنا ؟

– لا أعرف ثمنه ، و لا أعرف من أنتم ، و اتصالي بكم كان من أجل بيع قلادة .

– انتظر لحظة .

قطع الخط و بعد دقيقة رن الهاتف مجددا .

– القلادة التي تخص آل مرواني صارت ملكا للآنسة ميكايلا موران و لا تزال عندنا إشارة تؤكد أنها لا زالت في ملكيتها إلى هذه اللحظة .

– تماما ، و قد وكلتني ببيعها .

– نحن لا نقبل بالوكالة ، و لحسن حظك أنك مسجل عندنا من الملاك من صنف جيم ، فاحرص على أن تكون حاضرة معك عند عملية البيع ، فأنت تعلم أنها يجب أن تكون بالقبول و الإيجاب.

– و متى ذالك ؟

– بعد ست ساعات من الآن .

– الثمن ؟

– إنها ليست بالشيء الكبير ، و لولا أنها تخص آل مرواني ما فكرت في شرائها لأنها من فئة حرف الفاء و هذا و ما دونه ليس من تخصصنا وإلا لكان أمام موظفنا عشرات الآلاف من الهواتف .

– لقد عرضتها للبيع و حصلت على عروض جيدة ، أظنك تعلم ذالك .

– أجل أعلم ولقد أخبرناها أن أربعمائة ألف دولار ثمن مناسب .

– أحضر خمسمائة ألف .

– أربعمائة و عشرون بعد ست ساعات .

– انتظر سأخبرك بالعنوان .

– لا داعي .

بعدما أقفلت الخط سألني عثمان إذا ما كانت في المسألة شبهة أو خطورة ، أخبرته أن القلادة باهظة الثمن لأنها أثرية ، و قد حصلت عليها ميكايلا بطريقة شرعية و ستبيعها بطريقة شرعية ، و لا داعي للخوف ، أما ميكايلا فتفاجأت من ضخامة المبلغ و وعددتنا بعشرين في المائة إذا ما تمت الصفقة من دون مشاكل ، غادرنا المحل ثم عدنا إليه بعد أن تعشينا في مطعم بشارع أنفا ، كان عثمان مسرورا بالعشرة في المائة التي سيحصل عليها و خائفا في نفس الوقت لاعتقاده أن الأمر محفوف بالمخاطر ، أغلقنا علينا الباب و رحنا ننتظر .

قالت ميكايلا :

– كان من الأفضل لو أنك تجيد الفرنسية يا شعيب .

قلت :

– بل كان من الأفضل لو أنك تتحدثين العربية .

أحست بعنجهيتها و تداركت :

– أليس الأمر جيدا بالنسبة لعثمان ، فهو يتحدث الفرنسية بالإضافة إلى العربية .

قلت :

– أن تهتدي بمنارتين في نفس الوقت أمر مضلل .

قال عثمان :

– بل سيكون أكثر أمانا .

قلت

– الأكثر أمانا هو أن تسترشد بأقربهما إليك .

واصلنا الحديث إلى أن سمعنا طرقا خفيفا ، فتحتُ بحذر ، وجدت أمام المحل شابا أشقرا طويل القامة يرتدي معطفا طويلا ، يضع يده اليمنى في جيبه و يحمل حقيبة باليسرى ، قال بصوت هادئ و رزين :

– يسرني لقائك سيد شعيب .

– ادخل من فضلك .

التفت إلى حيث كانت تقف سيارة رباعية الدفع من نوع جيب في الجهة الأخرى من الشارع و أشار إلى سائقها أن يوقف المحرك ، ثم ولج أمامي ، قلت :

– هذه ميكايلا مالكة القلادة ، يمكنك أن تتم الصفقة .

تحدث معها بالفرنسية وسألها إذا ما كانت تنوي بيع القلادة بملء إرادتها قالت :

– أجل .

سلمها الحقيبة وطلب منها أن تعد المال، رجوته أن يجلس ، نظر إلى كرسي السيد عبد القدوس و قال:

– لم آتي من أجل الجلوس و لكن عرضا كهذا لا يمكن تفويته .

قلبت ميكايلا رزم المال ثم أخرجت القلادة من حقيبتها و أعطتها له . وضعها في جيب معطفه و أخرج هاتفا غريب الشكل يشبه مرآة صغيرة ، أجرى مكالمة بلغة أغرب من شكل الهاتف ، و قد أكد لي عثمان و ميكايلا فيما بعد أنهما لم يسمعاها من قبل ، و بعد أن أغلق الخط قال :

– لقد تمت الصفقة ، طابت ليلتكم .

قام من على مقعده و نظر نظرة مفاجئة صوب عثمان و كأنه لم ينتبه إليه من قبل ، ابتسم بخبث و قال :

– عثمان الهواري ، تشبه والدك كثيرا عندما كان شابا .

شخصت عينا عثمان و قال بهدوئه المعهود .

– هل تعرف والدي يا سيد ؟

– لقد عمل تحت رئاستي سبع سنوات قبل أن يتم تكليفه باختراق جماعة البر و الميزان .

تشنجت عضلات وجه عثمان و قال بصوت حاد و مرتفع لم أعهده منه من قبل :

– كم عمرك يا هذا ؟

قال الشاب من غير أن يغير نبرة صوته :

– لقد كان والدك دائما ما يقول من أراد السلامة في هذا العصر فيجب عليه أن لا يسأل الناس عن دينهم و لا عن أعمارهم .

جلس عثمان و كأنه تعرض للتخدير و قد أخبرني بعد ذالك بأيام أن سبب ذهوله آنذاك هو أن الكلمات التي قالها الشاب بالفعل هي نصيحة والده المفضلة . طلبَ مني ذالك الشاب الغامض أن أشيعه و قال لي عندما كنا في الخارج :

– لا يزال موظفنا ينتظر رنين الهاتف المخصص لك .

– سأبيع لا محالة ، و لكن ليس الآن .

– هل تعرف أنك تملك أعظم شيء توارثه آل مرواني ؟

– و ماذا عن القلادة ؟

– دورها يقتصر على الحماية من العقارب .

و أشار برأسه إلى شقة مصطفى أمزار .

عرض سينمائي أقيم من أجلها

أوصلنا ميكايلا إلى فندق ليالي غرناطة و أصرت على أن نلتقي صبيحة ذالك اليوم ، بعدها قام عثمان بتوصيلي إلى مشارف حي كولومبيا و في الطريق عرج على بيته و أودع فيه العشرة في المائة الخاصة به أما أنا فقد تركت نصيبي في المحل .كان شارد البال طيلة الطريق ، في بادئ الأمر لم أعلم هل السبب هو الاثنان و الأربعون ألف دولار التي حصل عليها أم كلمات ذالك الشاب الأسطوري . استسلمت بعد أن فشلت في محاولتين لجره إلى الحديث ، ثم لزمتُ الصمت إلى أن ودعته .بعد عشرِ ساعات وجدنا ميكايلا سبقتنا إلى المقهى ، كانت سعيدة بانتهاء محنتها و بالأموال التي حصلت عليها ، سألتني أكثر من مرة إذا ما كان حمزة يعلم ثمن تلك القلادة و تجاهلتُ سؤالها في جميع المرات لأني لا أعرف الجواب و لم استطع تخمينه . أخبرتهما أني سأقيم حفل زفافي بعد أسبوعين و وجهتُ لهما الدعوة فرحت ميكايلا و عزمَتْ على تأجيل عودتها إلى كندا أسبوعا عن موعدها و ذالك من أجل حضور الحفل ، أما عثمان فقد اعتذر . لقد سرق ذالك الشاب بشاشته و ثقته بنفسه ، كانت لعثمان قاعدة صلبة ارتكز عليها طيلة حياته و فجأة حولها ذالك الشخص المجهول إلى حبات رماد و تركه واقفا على لا شيء ، و ستكون لي معه و مع أخيه رضوان حكايات في المحطة الثانية من رحلتي و أعترف مسبقا أنهما كانا من أنبل الناس الذين عرفتهم .

بوجود تلك الدولارات التي جعلتها في الصندوق الخشبي الذي كان يرتكز عليه كرسي السيد عبد القدوس سرَّعتُ من عملية تجهيز المحل ، اقتطعتُ منه غرفة خلفية جعلتُ مساحتها أربعة أمتار مربعة ، و فصلتها عن باقي المحل بجدار من الألمنيوم ، جعلتُ فيها الكرسي و السرير و الكتب التي أحضرتها من مكتبة المرواني ،و جهزت باقي المحل برفوف من الخشب الجيد و جعلتُ له واجهة من الألمنيوم و الزجاج السميك ثم أحضرتُ خطاطا و طلبت منه أن يكتب بالخط الديواني على اللافتة و على الزجاج الأمامي للمحل وراقة شعيب . و قد ثم ذالك كله في مدة اثنا عشرة يوما .

قبل حفل زفافي بخمسة أيام توجهت إلى منطقة المعاريف وسط البيضاء ، انتقيتُ بدلة فاخرة من نوع لوي فيتون كانت ضربة حظ دون علم مسبق بالموضة و علاماتها المميزة ، كانت عبارة عن سترة وسروال و حذاء كلهم باللون الأسود أما القميص فكان باللون الأحمر الداكن، أثناء عملية التغليف طلبت من البائع إبعاد ربطة العنق التي كانت من ضمن الطاقم ، امتثل و هو يسأل و الارتياب بادٍ عليه إذا ما كنت متأكد أني أرغب فعلا في شراء تلك البدلة بمبلغ إحدى عشر ألف درهم ، أما المضحك في الأمر فهو تضمر حفيظة لما أخبرتها بثمن البدلة مع أني أنكرت صفرا ،و اعتبرتْ شراء بدلة بمبلغ ألف و مائة درهم إسراف ليس في محله .

زارتني سناء في تلك الفترة مرة واحدة و أخبرتني أنها استأجرت شقة مفروشة في حي الولفة بثمن ألفي درهم شهريا ، قالت أنها لا ترغب في بيع شقتها بسبب ذكرى عادل و أنها قد تفعل إذا ما اضطرت إلى ذالك ، و أخبرتني أن السيد خليفة أمزار يملك من المال ما يمكنه من شراء أفخر الشقق لأبنائه لولا أنه يعاني من داء الشح ، أما فيما يخص مصطفى أمزار فلم أره منذ اليوم الذي توعدني فيه و توعدته ، و قد لاحظتُ خلال تلك الفترة أنه كل يوم بحلول الساعة العاشرة صباحا تقدم امرأة شابة في حوالي الثلاثين من عمرها في سيارة أنيقة من نوع فيات و تصعد إلى شقة مصطفى و تظل إلى حدود الساعة

الثالثة أو الرابعة مساءا ثم تغادر ، و كانت غالبا ما تخرج إلى طرف الشارع لاستقبال بعض الأشخاص كان من بينهم في بعض الأحيان أشخاص أجانب و كانت تقودهم إلى شقة مصطفى و تدوم زيارتهم نصف ساعة على الأكثر ، أما بحلول المغرب فقد كانت تنبعث من شقة مصطفى روائح كريهة . أخبرني أحد الجيران أنهم قاموا بتقديم شكاية لدى السلطات غير أن شكايتهم لم تُحدِث أي تغيير .

بعد الانتهاء من ترميم و تجهيز المحل و اقتنائي للبدلة لم يبقى أمامي أي عذر أقدمه لحفيظة بسبب تأخري عن العودة ، قررت أن أغادر بعد أن أتمم قراءة رواية الفضيلة . الأدب الفرنسي ممتع و تتمنى أثناء القراءة أن لا ينتهي الكتاب و عند الختم تنتهي المتعة و تنتهي معها علاقتك بالكتاب على عكس الأدب الانجليزي فإنك تقرأ و تتفقد عدد الصفحات المتبقية التي لا تنتهي و بالختام تبدأ التساؤلات و تبدأ معها علاقتك بالكتاب ، و الأدب الألماني يشبه إلى حد ما الأدب الانجليزي ، و فيما كانت تتوارد علي هذه الخواطر همس السيد عبد القدوس في أذني «مياه سبعة آبار » قلت : أعرف أنك لست هنا ، و لكن هذا ما كنت أنتظره .

في قريتينا كان التحضير للعرس هو الشغل الشاغل لكل نسوة آل أشقير و آل مودود ، بدت حفيظة متضايقة و متجهمة ، ظننت أنها غاضبة بسبب غيابي الطويل ، حاولت التبرير ، أوضحت لي أن سبب قلقها يرجع إلى أنها أحست منذ حوالي الأسبوعين بأن حفل زفافها لن يمر على خير و ازداد الأمر سوءا بقدومي ، طلبت من عزيز ابن خالتي فتيحة تجهيز عربة الجر الخاصة به و حملت عليها برميلا سعته مائتا لتر ، طفنا على القرى المجاورة و ملأناه بمياه سبعة آبار مختلفة منها ما يستعمل للري و منها ما يستعمل للشرب. ملأت منه سطلا وطلبت من حفيظة أن تغتسل به قالت بنبرة غاضبة لم تخاطبني بها من قبل :

– ليس الآن يا شعيب ، أنا مشغولة و الدار ممتلئة .

قلت :

– إما الآن و إما سأضطر للعودة إلى البيضاء حتى ينتهي العرس .

أخذت السطل و دخلت الحمام و هي تغمغم ، فيما كانت هي تغتسل كنت أنا في غرفتي أمسك الأسطوانة و أتساءل إذا ما كان الوقت مناسبا لفتحها خصوصا أني علمت أنها مخطوطة ، اقتحمت حفيظة الغرفة و كانت مبتهجة ، اعتذرت عن فظاظتها و قالت :

– لقد كنت محقا فبعد اغتسالي زال ذالك التوتر الذي كان يسبب لي القلق و أظنني مستعدة لمراسم الحفل .

قلت :

– و أظنني لست مستعدا لفتح هذا الشيء .

– ماذا ؟

– لا شيء .

حضرت عمتي نعيمة قبل ثلاثة أيام من موعد العرس و حضرت ميكايلا قبل يوم واحد ،كانت برفقة رضوان الأخ الأصغر لعثمان و الذي سيصبح زوجها فيما بعد ، قامت السيدة سميرة أيت راوي بتزيين يدي حفيظة و رجليها بالحناء ثم قامت بنفس الأمر مع ميكايلا و رفضت تزيين باقي النساء و الفتيات مما اضطرهن إلا إحضار مزينة محترفة ، كما قامت في صبيحة يوم الحفل بإلباس ميكايلا قفطانا مغربيا جعلها تبدُ كبنت السلطان بطلة الحكايات التي كانت ترويها لنا الجدات . اغتسلتُ صبيحة يوم العرس من البرميل و ظللت في غرفتي طيلة النصف الأول من اليوم و بحلول النصف الثاني بدأ الحفل و انتقل كل النسوة باستثناء المكلفات بالطبخ إلى الخيمة التي ثم بنائها أمام بيتنا ، و بقيت أنا في البيت برفقة الرجال.

بسطت ميكايلا سلطان جمالها على جميع الحاضرين و سحرت جميع الشباب و خصوصا عماد و مروان فظلا يترددان على الخيمة بين الفينة و الأخرى ، و بحلول الثانية زوالا أرسلت النسوة في طلبي لبست بدلتي الجديدة و انتقلت برفقة عبد الغني ابن عمي إلى الخيمة . مع دخولي سرت الوشوشة ، كانت البدلة رائعة لدرجة أنها جعلت حفيظة تشعر بالغيرة ، أمسكتْ بذراعي و حرصتْ ما أمكن أن لا أنظر صوب المكان الذي كانت تجلس فيه ميكايلا ، قبل أن نبدأ بالتقاط الصور سمعت صوت صفية يقول:

– لا تفعل .

التفت لأعرف مصدر الصوت ، لم أجد سوى قماش الخيمة ، قال المصور :

– أدر وجهك يا سيد شعيب .

قال الصوت :

– لا تفعل .

رفعت يدي و أشرت إلى المصور بأن ينتظر ، همستُ في أذن حفيظة :

– أعتذر يا عزيزتي سأخرج الآن ، تلك النسوة اللواتي تحدقن بي جعلنني أشعر بالارتباك.

بحلول العصر و قبيل انتهاء الحفل بساعة قام رضوان بإخراج ميكايلا من الخيمة و أمهلها عشرة دقائق لتغير ملابسها وتستعد للعودة إلى البيضاء و ذالك لأنه لاحظ الشباب المخمورين يتحرشون بها ، فقد قام عماد باقتناء خمسة لترات من خمر محلية الصنع يسميها المغاربة « الماحية » و احتساها برفقة مروان و مبارك ابن عمتي و شابان آخران من القرية .

كان رضوان الهواري في الثلاثين من عمره ، ملامحه جادة و نظرته قاسية ، حائز على الحزام الأسود في الكراطي و شارك في عدة منافسات وطنية و قارّية ، و لأنه لا يحب في هذه الدنيا إلا أمه و نادي الرجاء البيضاوي و لا يكره فيها إلا المخدرات و التنمر فقد غضِب غضبا شديدا عندما حاول عماد التحدث مع ميكايلا بعد أن صعدت إلى السيارة فنزل و سدد إليه لكمة جعلته يترنح بعيدا ، حاول شاب مخمور التدخل فكان نصيبه ركلة جعلته ينام إلى ما بعد المغرب . أخذت شباب القرية الحمية و تسلحوا بالحجارة و أزمعوا على النيل من رضوان الذي ظل على حاله و لم يرمش له جفن رغم تحشدهم حوله ، حلتُ بينهم و بينه و قلتُ :

– عماد ابن عمي و رضوان ضيفي و إذا مسه أحد من خارج آل مودود بسوء فستكون مظلمة يصعب عليَّ بلعها .

التف حولي إخوة حفيظة و أبناء خالاتي فتفرق الشباب الغاضبين ، عاتب عبد الغني رضوان على تسرعه و اعتذر هذا الأخير منه و من عمي العربي و غادر مع ميكايلا التي كانت تنظر لما يحدث بعيون تشع بريقا و كأنه عرض سينمائي أقيم من أجلها .

انتهى الحفل و بدأ الرجال بتفكيك الخيمة و ظننتُ أن الحفل انتهى على خير ، دوتْ صيحة ثم ثانية ثم ثالثة ثم دخلت خالتي سمية و قالت : (مروان سينتحر) ثم سقطتْ مغماة عليها . خرج الكل مسرعين ، نظرتُ إلى حفيظة التي كانت مكسورة بسبب رفضي التقاط الصور معها كانت تبكي ، قالت :

– كنت أعلم أن الحفل لن يمر بسلام .

أخذت قنينة فارغة ، ملأتها من البرميل و خرجت على إثرهم . تسلق مروان صهريج الماء الخاص بالقرية و ربط حبلا بالقضيب المعدني الذي يشكل آخر درج و جعل في عنقه الطرف الآخر للحبل ثم جلس على حافة الصهريج و دلّى قدميه للخارج . في الوقت الذي وصلت فيه كان عبد الغني مريوش زوج أختي يحاول إقناعه بالنزول ، كان يصرخ و يهدد بأن يرتمي إذا ما حاول أحد الاقتراب منه . حاول عمي العربي الاقتراب منه و التحدث إليه ، رفض و بدَ كأنه يستعد للقفز فتراجع عمي . أردتُ أن ألفت انتباهه إلي بطريقة مستفزة تجعله يصرف النظر عن الموت و لو بعد حين فخلعت سترتي و رميتها عن يميني نظر إليّ الجميع و تعجبوا من فعلي الغير متوازن ، سرتُ نحوه بهدوء و لما أصبحت موازيا لعبد الغني طلبت منه التراجع ، قال مروان :

– ماذا هناك يا شعيب ؟

– هل عزمت فعلا على الانتحار أم أنها حركة من حركاتك الصبيانية ؟

– هذه المرة أنا جاد و لا تحاول منعي .

– لا ، لن أمنعك و كل ما أطلبه منك هو أن تشرب قبل أن تموت .

– جعلتك البدلة الأنيقة أحمقا .

– لماذا ؟ فهدفي هو أن أسدي لك خدمة أخيرة أتذكرك بها . وسأفتخر في جنازتك و أردد على المشيعين أني سقيتك يا مسكين قبل أن تهلك .

– و ما الفرق إن مت رويانا أو عطشانا ؟

– الفرق هو أن تلبي لصديق طفولتك طلبا أخيرا .

ابتسم و تجشأ ثم قال :

– ناولني القنينة و إذا حاولت لعب دور البطولة سأركلك و أكون على إثرك .

صعدت السلالم ببطء و ناولته القنينة و عدت إلى مكاني ، أرادت أمي التدخل فأمسكها والدي و قال :

– دعي شعيب يتصرف .

نظر إلى القنينة بارتياب و لم يشرب ، قلتُ :

– ما بك ، هل تريد أن تنهي حياتك بإخلافك للوعد .

– سأشرب و من بعدها سأغادر الدنيا ما دمت عجزت عن مغادرة هذه القرية المنكوبة .

شرب قليلا و هم بوضع القنينة .

– أنت لم تشرب أنت مخادع .

شرب نصفها و رماها ، تقيأ و أزال الحبل من على عنقه و سحب رجليه ، أنزلناه بعد ذالك من دون مقاومة منه و كل ما قاله هو أنه يريد أن ينام ، في منزل خالتي تحدثت النسوة عن سوء الطالع الذي رافق العرس ، دخلت جارة لخالتي و قالت :

– هل علمتن ؟ لقد تحول العرس الذي كان يقام في القرية المجاورة إلى جنازة .

الوقت هو أثمن شيء على هذه الأرض

يقيم معظم المغاربة أعراسهم في شهر يونيو و لذالك فقد أقيم حفل زفاف في قرية مجاورة لنا في نفس اليوم الذي كان فيه عرسي غير أن نهايته لم تكن سعيدة ، فقد أراد أحد المدعوين ركن سيارته في مكان ظليل فصدم جدارا سقط على بعض المدعوين و توفيتْ امرأة و كنتها .

بعد عشرين يوما عدت إلى الدار البيضاء ، اتجهت مباشرة إلى المحل و وضعت الأسطوانة تحت الكرسي بجانب الدولارات ، بقيت هناك إلى ما بعد المغرب و لما انتهيت من إغلاق أبواب المحل استعدادا للمغادرة وجدت خلفي الكلب الأسود ينظر صوب بيت آل أمزار . كان أكثر ضخامة من المرة السابقة ، حاولت الاقتراب منه أكثر بغية التثبت من شكله فشعرت بالضيق و التعرق و آثرت الانسحاب . في الغد و بحلول الساعة الثامنة صباحا كنت في المحل و في التاسعة و عشرين دقيقة حضرت السيدة صاحبة السيارة الأنيقة و صعدت إلى شقة مصطفى ، بعد خمسة دقائق نزلت تجري و ركبت سيارتها و غادرت ، بعد خمسة عشرة دقيقة عادت برفقة الشرطة ، اجتمع الناس حول المنزل و تحلق بعضهم على سيارة الشرطة لينتشر خبر مفاده أن مصطفى أمزار وُجِدَ ميتا داخل مرحاض شقته و الدماء تسيل من أنفه و أذنيه ، في الساعة الحادية عشرة صباحا حضر خليفة أمزار و رفض أن ينقل جثمان ابنه إلى المشرحة و استخدم نفوذه ليدفن مصطفى عند تمام الساعة الثالثة عصرا .

في اليوم التالي و فيما كنت أُنزل المعدات التي اشتريتها من أجل الوراقة ، حضرت سناء ، لم تستطع إخفاء فرحتها بهلاك مصطفى ، قالت :

– يجب أن تخبرني كيف عرفت أنه سيلقى شر أفعاله من تلقاء نفسه ؟

– لم أكن أعرف ، و لكن التريث غالبا ما يأتي بنتائج محمودة .

– لقد أصاب عادل عندما قال أنك تتخذ قرارات عاقلة من دون تفكير .

زارني عثمان الهواري في نفس اليوم وبقي معي لحوالي نصف ساعة ، قدم لي مجموعة نصائح كانت سببا مهما في نجاح مشروعي ، و منها تفادي شراء كتب الربع السيئة الجودة و حثني على الإكثار من الطبعات الجيدة لمؤلفات أغاثا كريستي و نزار قباني و جورجي زيدان و كذالك كتب تعليم إعداد الحلويات ، و دلني على بعض العناوين المطلوبة في السوق بعينها منها الرحيق المختوم و لا تحزن و آداب الزفاف و تحفة العروس و رياض الصالحين و العبقريات و كفاحي و قنديل أم هاشم و الأجنحة المتكسرة كما نصحني بالمجموعة الكاملة للمكتبة الخضراء الخاصة بالأطفال و اقترح عليّ اقتناء آلة نسخ ثانية من باب الاحتياط .

على الرغم من حديثه الطويل معي إلا أنه كان لا يزال مختلفا عن عثمان الذي عرفته أول مرة ، أخبرني أنه أوصل ميكايلا إلا المطار و طلبت منه قبل أن ترحل أن يبلغني أنها صارت تعلم أنها من الدهماء و قد قررتْ قرارا نهائيا أن تبقى منهم .

لم أعد أذهب إلى بيت عمتي منذ موت مصطفى و كنت أنام في الغرفة الخلفية للمحل . عرضتُ على مبارك أن يشتغل معي في الوراقة مقابل مبلغ ألفين و خمسمائة درهم شهريا و ذالك بعد أن تيقنت من إقلاعه عن تدخين الحشيش ، و كان من الممنوع عليه دخول الغرفة الخلفية للمحل إلا بحضوري لأني جعلت لها قفلا و احتفظت بالمفاتيح في حين تشاركت معه مفاتيح الباب الخارجي للمحل ، و اشتريتُ هاتفا محمولا من نوع إيركسون و نظرا لحجمه الكبير فقد كنت غالبا ما أتركه في الوراقة .

بعد موت مصطفى بحوالي أسبوع زرت خليفة أمزار في مكتبه لم يكن حزينا لوفاة ابنه و اعتبر الأمر ضريبة منطقية لمصاهرة فرع منشق ، سألني إذا ما كنت أحمل إليه خبرا سارا فأوضحت له أن زيارتي جاءت وفاءا بالوعد الذي قطعته له سابقا و ليس لشيء آخر ، قال :

– يبدُ أنك قررت الاحتفاظ بالأسطوانة .

– لعلك تقصد المخطوطة .

– من أخبرك أنها مخطوطة ؟

– شخص عرف أنها صارت ملكي منذ أن أعطاها لي السيد عبد القدوس .

– ذاك فلاديمير و لن تتاح لك رؤيته إلا إذا قررت بيعها .

– أظنك تقصد شخصا آخر فالذي التقيت به مغربي يتكلم العربية بطلاقة .

نظر إلى سترتي و إلى قميصي و قال :

– إنه يتكلم معظم لغات العالم ، هل بعته المخطوطة .

– لقد اشترى قلادة كانت لحمزة و أعطاها قبل موته لشابة كندية ساعدتها على بيعها .

ضرب سطح المكتب بكفه و قال :

– كنوز المرواني يتقاسمها الغرباء و لم يطلنا من مصاهرتهم إلا الويل .

–هل سبق لك أن التقيت بفلاديمير ؟

– لا و لكني سمعت عنه الكثير ، يقولون أنه لا يهتم للمال و لا يتساهل في مسألة الوقت و يعتمد فلسفة في الحياة تقول الوقت هو أثمن شيء على هذه الأرض .

– هذه حكمة عظيمة .

لم يعجبه مدحي لفلسفة فلاديمير فقال بعد الضحكة الساخرة :

– لقد أخبرني أحد معارفي أنه قبل تسعة سنوات اتفق شخص من شنقيط الموريتانية مع فلاديمير على بيعه قارورة زجاجية تحتوي على ثلاث شعرات توارثها أجداده مقابل مبلغ ثمانمائة ألف دولار ، و عند وقت التسليم غلب الطمع على الموريتاني و رفض تسليم القارورة ما لم

يرفع الثمن إلى مليون دولار ترك فلاديمير له الثمانمائة ألف دولار و قال له سأحضر لك الباقي و اعلم أنك ارتكبت خطئا قاتلا ، بعد ست ساعات شبت النار في بيت الموريتاني و لم ينج من الحريق إلا زوجته و أحد أبنائه و مات الآخرون و احترقت معهم الدولارات و القارورة .

– و هل يعمل فلاديمير هذا لحسابه الخاص ؟

– هناك من يقول أن له احتكاكا مباشرا بأسياد روما ، و هناك من يقول أنه واحد منهم و لكني أشك في ذالك فالأوصاف التي تروى عن الأسياد مخالفة تماما عن أوصاف فلاديمير ، كما أنه لم يثبت عن الأسياد مغادرتهم لروما في يوم من الأيام باستثناء تلك الحلقة التي ثم إرسالها في بدايات القرن الماضي إلى نيويورك .

– إذا ففلاديمير هذا لا يملك وقتا للدردشة أو الزيارات الفارغة .

– هكذا هو حال رجال الظل .

همست صفية في أذني :

– إنهم لا يملكون ظلا في الأساس .

قلت :

– ماذا ؟

قال :

– قلت لك هذا هو حال رجال الظل .

– إنهم لا يملكون ظلا في الأساس .

شبك بين أصابعه و نظر إلي نظرة عميقة ثم صرف بصره عني و قال :

– و لأنهم لا يملكون ظلا فإنهم يشتغلون في الظل حتى لا تكشف الشمس حقيقة افتقادهم للظل .

في زيارتي التالية للقرية سعيت إلى لقاء محمد أشقير و سألته عن أوصاف الشاب الذي زاره في المكتب ، فكانت الأوصاف التي نطق بها مطابقة لأوصاف الشخص الذي التقيت به ، سألته إذا ما كان لاحظ شيئا مريبا أثناء تلك الزيارة ، أخبرني أنه أثناء الحديث معه أحس بوجود شخص ثالث يقف خلفه و لكنه لم يجرأ على الالتفات إلا بعد أن غادر الشاب ، و لما التفت لم يجد أي شخص و أضاف أنها كانت مجرد أوهام .

سافرت بعدها إلى مدينة الجديدة و اتجهت إلى مقر العمالة و طلبت لقاء السيد العامل ، اعتذرت السكرتيرة لكثرة أشغال العامل و طلبت مني المحاولة في يوم آخر أو لقاء الكاتب العام إذا كانت هناك ضرورة ، قلت لها :

– أعدك أن أنصرف بعد أن تبلغي السيد العامل أن هناك شخصا التقى بفلاديمير قبل بضعة أسابيع يود التحدث معه .

نظرت إلي باستهجان و قالت :

– السيد العامل مشغول و أنت تضيع وقتي .

– وعدتك بأن انصرف فور خروجك من مكتبه و أنتِ من تضيعين الوقت .

نهضت متحاملة و دخلت مكتب العامل دون استئذان و خرجت بعد أقل من دقيقة هممتُ بالمغادرة فور خروجها فقالت :

– انتظر يا سيد .

–هل أدخل ؟

– لا ، السيد العامل طلب منك أن تنتظره عند البوابة الخارجية و سيمر ليصطحبك بعد خمسة دقائق .

بعد خمسة عشرة دقيقة كنت أجلس برفقة عامل الجديدة السيد عبد العزيز درواس في مقهى قريب من المكان الذي يقام فيه موسم مولاي عبد الله سألني عن اسمي فقلت شعيب .

– أنت أحمق يا شعيب .

– هل أزعجك نطقي اسم فلاديمير ؟

– أجل ، و يشبه إلى حد ما شخصا دخل المقر المركزي للكي جي بي و قال لأحد الموظفين أخبر رئيسك أني التقيت قبل قليل بالشيخ أيمن الظواهري .

– لا بأس بصفة الحمق لأنها في بعض الأحيان تصير مرادفا لشجاعة .

– و أين الشجاعة يا فتى في ذكرك لشخص يعتبر من أباطرة الكيان العميق في مكان عمومي ؟

– و لماذا هذا الرعب المبالغ فيه يا سيد العامل أليس فلاديمير صديقك ؟

– داخل الهرم لا توجد صداقة ، توجد أوامر و تعليمات .

– و من يصدر هذه الأوامر ؟

– اسأل من في القمة ألم تقل أنك التقيت فلاديمير ؟

– هذا صحيح ، فقد أبرمت معه صفقة و تمت من دون مشاكل .

– أأنت شعيب مودود صهر ذالك الموظف ؟

– أجل .

– هل يمكنك أن توضح سبب زيارتك لي ؟

– أريد أن أستشيرك في أمر . لا يزال عندي شيء آخر يرغب فلاديمير في شرائه و أود أن أتصل به لأعرف الثمن فإن أعجبني بعتُ و إن لم يعجبني رفضت البيع .

– و هل تعدني إذا ما قدمت لك النصح أن لا تعود لزيارتي ؟

– أعدك .

– لا تتصل به إلا بعد أن تقرر البيع و لا تنطق باسمه ثانية .

لم يكن هدفي من زيارة عامل الجديدة طلب النصح كما أفصحت ، و إنما كان هدفي تحصيل بعض المعلومات ، و قد نجحت في ذالك لأني تيقنت أن اسم الشاب فلاديمير و أنه لا يعمل لحسابه الخاص و أنه يحتل مكانة عالية داخل الهرم .

بعدها عدتُ إلى البيضاء ، و جدتُ مبارك مرهقا سألته :

– هل هناك خطب ما ؟

– ألم تعلم بالمصيبة التي وقعت في حي كولومبيا ؟

– أي مصيبة ؟

أخبرني أنه قبل يومين و في مساء يوم السبت على وجه التحديد ، و في الوقت الذي كانت تقام فيه مباراة الدربي بين الرجاء و الوداد البيضاويين و فيما كان معظم شباب الحي محتشدين داخل مقهى كاسترو لمتابعة المباراة ، تسلل أحمد القط إلى داخل المقهى و أشار إلى كل من انتبه إليه بأن يلزم الصمت ، و لما حدد مكان جلوس أفراد من آل بركي سحب سكينين و انقض عليهم ، سادت الفوضى في المقهى و فر الجميع باستثناء سفيان البركي و المحجوب البركي اللذان كانا جثتين هامدتين ، ظل أحمد يطوف في أزقة كولومبيا و يبحث عن أفراد آخرين من آل بركي و يصرخ كالمجنون ، حاول الساكنة إسقاطه أرضا برميه بالحجارة أو بواسطة عصي طويلة و لكنهم فشلوا و كاد ت محاولاتهم في بعض الأحيان أن تسفر عن جريمة قتل ثالثة ، و لم يتوقف الأمر إلا حين قدمت الشرطة و أطلقت الرصاص على قدميه . قلت لمبارك :

– ألم يتحدث الناس على أن أحمد هاجر إلى اسبانيا ؟

– هذا ما ظنه الجميع ، و لكن في الحقيقة كان مختبئا في منطقة بوسكورة يتحين الوقت المناسب لينفذ انتقامه .

– انها جريمة و ليست انتقاما .

أخبرني مبارك أن جميع عائلة البركي غادروا الحي لأنهم يخشون عملا مماثلا من منير ، و خصوصا أنه هناك من أبصره يتجول في الحي ليلا ، و أن الشرطة تسعى جاهدة لتحديد المكان الذي يتواجد به .

كان هذا آخر حدث رئيسي يقع في حي كولومبيا خلال محطتي الأولى ، حُكم على أحمد بالسجن المؤبد ، و قُتِل في سجن العاذر بعد ذالك بخمس سنوات بسبب تصفية الحسابات بين السجناء .

بل الإغراق المعلوماتي

في السادس و العشرين من عشت سألت عن السيد بوفلاح في مكتبه ، أبلغني نائبه أنه استقال من منصبه فور قدومه من فرنسا ، سألته عن عنوان سكنه فأخبرني أن لا فائدة من زيارة بيته لأنه حاول قبلي و أخبرته زوجة السيد عمر أنه يقضي فترة النقاهة في منزل والده القديم الذي يقع في بلدة بنوار على بعد بضعة كيلومترات من مدينة خريبكة .

اتجهت بعدها إلى شارع غاندي حيث كان يقطن ياسين العيدوس في الطابق الرابع من إقامة الياسمين ، سألني البواب عن وجهتي بأدب و لباقة و لما أخبرته أني أنوي لقاء ياسين العيدوس اعتذر عن تطفله و قام باستدعاء المصعد . كانت شقته فاخرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، كانت مساحتها تقارب المائة متر ، و مع ذالك فإنها لم تكن تحوي غير غرفة واحدة و حمام و مطبخ صغير ، أما باقي الشقة فكان عبارة عن بهو كبير ثم فرشه بأثاث يختلف من ركن لآخر ، منه ما هو عصري و منه ما هو تقليدي .

أخبرني أنه كان يقرأ رواية مائة عام من العزلة قبل أن أطرق عليه الباب ، و أنه قرأها قبل ذالك مرتين ، و ذالك بسبب حبه للارتباك الذي تسببه له قراءتها ، لأنه يجعله يسافر بعيدا عن الواقع و أن تأثيره يدوم لأيام ، انتبه إلى أني لم أستوعب كلامه فقال :

– إذا كنت في عزلة و قرأت مائة عام من العزلة فكن على يقين أن تفكيرك سيحتاج إلى ثلاثة أيام على الأقل حتى يستقيم مجددا ، و ذالك هو الارتباك الذي قصدته .

– هل تقصد بالإرباك كثافة الأحداث التي لا تترك للقارئ فرصة ليستريح ذهنيا أو يشرد قليلا أثناء القراءة ؟

– بل الإغراق المعلوماتي الذي يجعلك إما أن تعتقد أن جميع الأحداث التي في الرواية خيالية و يستحيل حدوثها أو أنها واقعية و يمكن حدوثها ، و إما أن تدخل في حالة إرباك شديدة لتفصل الخيالي عن الواقعي .

– يا سيد ياسين إن نظرتك للرواية فريدة و سأسقطها من اليوم فصاعدا على كل ما يصدر من الصحافة الحكومية .

ضحك و سألني إذا ما كنت أنوي لقاء عمر بوفلاح ، أجبته بالإيجاب فطلب مني أن أتمهل لبعض الوقت لأن السيد عمر عاد من فرنسا مختلفا تماما ، فقد التقى هناك بالسيد ديفيد برين لمدة ساعة واحدة و كان ذالك في الحادي من غشت ، و استطاع أن يقنعه بأن يبحث عن السكون . و قد زار ياسين بُعيد قدومه و تحدث معه طويلا عن التقسيم الخاطئ حسب قوله الذي نعتمده حين نقسم الأشياء إلى مادي و معنوي ، لأن هذا التقسيم يحمل تلبيسا متعمدا هدفه إخفاء التقسيم الحقيقي للأشياء و هو تقسيمها إلى متحرك و ساكن ، فكل شيء مادي في الحقيقة هو متحرك و هذا يشمل حديثنا عن صخرة مثلا ، فهي متحركة لأنها انتقلت من الأمس إلى اليوم و ستنتقل من اليوم إلى الغد و هذا التحرك الزمني يجعل جزيئاتها تتحرك مكانيا . و هكذا فكل ما ينتقل في الزمان و المكان المتداخلين أصلا فهو متحرك و كل

مخلوق سلم من تأثير الزمان و المكان فهو ساكن ، و الشعور بالخوف حسب التقسيم الخاطئ يعتبر شيئا معنويا لأنه غير محسوس أو ملموس ، أما في التقسيم الثاني فهو يعتبر حركة لأنه ابتدأ في نقطة زمنية و انتهى عند أخرى و لأنه ينتقل مكانيا إلى الشخص الذي بجانبك فيشعر هو الآخر بالخوف ، و قد ينتقل إلى كلب يبعد عنك عشرات الأمتار و يجعله ينبح عليك و يحاول عضك ، و كذالك شعورك بالأمان قد يجعل كل المحيطين بك يشعرون بالأمان ، و لهذا السبب قتلت القبيلة اليمنية المشهورة بالشجاعة ذالك الفرد منها الذي عرف بالجبن مخافة أن ينتقل الجبن إلى باقي أفراد القبيلة ، و بحسب هذا التقسيم فالأصل في الأشياء هي الحركة أما السكون فهو نادر و النادر لا حكم له ، و إذا أردنا الجمع بين التقسيمين فإنه يمكننا أن نقول أنه في هذه الدنيا كل شيء مادي و لا يصح لنا أن نصف الحزن مثلا على أنه معنوي و ذالك لأنه بين نقطتين زمنيتين و لا يصح لنا أن نصف النظرة التي نطلقها بأنها معنوية بل هي مادية متحركة و موجودة ، و لو تيسرت لنا الآليات المناسبة لاستطعنا إمساكها كما أمسكنا بالصوت و جعلناه في الأشرطة و أذعناه عبر المذياع .

خلاصة الفكرة التي جاء بها السيد بوفلاح من فرنسا بعد لقائه للسيد ديفيد برين تتمحور على أن جميع الأشياء التي يحكمها الزمان و المكان متحركة و بالتالي فهي مادية ، و عدم قدرتنا على لمسها أو تحسسها هو نتيجة لعجزنا و ليس لكونها لها معنى و غير موجودة بل إنها لها معنى و موجودة ، و لها أجسام لا نستطيع إحاطتها بحواسنا القاصرة و بسبب جهل بعض علماء الدين بهذه الحقيقة البسيطة فقد دخلوا في تفريعات و تأويلات أضاعت الكثير من الجهد و الوقت ، فعلى سبيل المثال لا الحصر قالوا أن الميزان الذي يزن الله به الأعمال غدا يوم القيامة هو ميزان حسي أي مادي فكيف يمكن أن توزن به الأعمال و الأقوال و هي أشياء معنوية ، فبدأت الشطحات و النطحات و كل أدلى بدلوه فمنهم من أصاب سعيدا و منهم من اقترب من إصابة سعد ، و السبب هو تأويلهم للأدلة و رفضهم التوقف أمام صريح اللغة و الأخذ بظاهر النصوص و الاستئناس بفقه الواقع .

و لما اعتقد السيد بوفلاح بإمكانية الحصول على لحظات من السكون في وسط عوالم يحكمها مبدأ الحركة فقد جعل من بيت والده معتكفا و لم يحدد مدة لزمن اعتكافه . و قد كان بقناعاته الجديدة من الأشخاص الذين استفدت منهم كثيرا خلال عبوري بالمحطة الثانية من رحلتي القصيرة ، رحلة الصدام مع الشيطان .

انتهى ياسين من سرد تفاصيل حديثه المطول مع بوفلاح ، قلت :

– غريب أمر السيد بوفلاح ، كيف جعلته جلسة ساعة واحدة يتخلى عن قناعاته السابقة و عن منصبه ؟

مسح ياسين على رأسه بيده اليمنى جيئة و ذهابا ثم قال :

– في إسبانيا كانت هناك حانة تسمى حانة الوهراني كان جل روادها من العرب المهاجرين ، في أحد المرات دخل الحانة ثلاثة من الشباب الإسبانيين ، و بعد أن سكروا قام واحد منهم اسمه فرناندو و شرع يستفز العرب ، وقف على كرسي و قال لقد غيرت اسمي من فرناندو إلى إسرائيل و من اليوم فصاعدا أريد من الجميع أن ينادوني بالسيد إسرائيل ، و بدأ يطوف على العرب الحاضرين و يطلب منهم أن يندهوا عليه باسمه الجديد و أصحابه يقهقهون ، في ذالك الوقت لم يكن يهمني إذا ما احتل اليهود فلسطين أوالعالم العربي بأسره ، و لكن احتقاره و استضعافه لهؤلاء العرب

المتواجدين بالحانة و أنا من بينهم جعلني أشعر بالحمية ، فأخذت قنينة كحول زجاجية و وضعتها خلسة تحت المائدة بالقرب من قدمي و انتظرت إلى أن اقترب مني و قال أنت يا مورو ناديني إسرائيل قلت إذا نديتني بالاسم الذي يروق لي سأناديك إسرائيل اقترب مني بطريقة تحمل في طياتها تهديدا و قال وما الاسم الذي يروقك ، أمسكت القنينة و قلت الاسم الذي يروق لي هو الموت لإسرائيل و ضربته على رأسه فترنح و سقط ، هجم علي صاحباه و بدأت أصارع أحدهما و أتفادى ضربات الآخر إلى أن تدخل شاب في العشرينيات من عمره و ضرب الشخص الثاني بكرسي فأفقده الوعي .

قلت :

– لن تخلو أماكن تجمعات العرب من أهل النجدات .

– هل تعرف من كان ذاك الشاب الذي تدخل لنجدتي ؟

– ومن أين لي أن أعرف ؟

– عمر بوفلاح ، و كان حينها سائحا و لم يكن مهاجرا .

– إذا فأنت من عرف بوفلاح على السيد المرواني .

– أجل ، فبعد أن عدت من أمريكا سعيت إلى استعادة توازني النفسي ، و كان للسيد عمر فضل كبير في ذالك .

– لقد ذكرت في ذالك اليوم أن السيد عبد القدوس طلب منك طلبا غريبا .

– هل تريد معرفته ؟

– الأمر عائد لك .

– إذا كنت ستحرص على أن لا يصل ما سأقوله لك إلى أسماع السيد عمر فلا مانع عندي من إخبارك .

– و لماذا السيد عمر على وجه التعيين ؟

– كنت قطعت له وعدا بأن لا أقتل مجددا .

– أفهم من كلامك أن السيد عبد القدوس طلب منك القتل و نفذت .

– طلب مني قتل رجل عجوز يسكن في كوخ صغير يقع على مشارف مدينة الصويرة ، و قد قتلته مرتين .

– كيف ذالك ؟

– خنقته في المرة الأولى حتى لفظ أنفاسه ، ثم جلست بالقرب من الجثة كما أمرني السيد عبد القدوس ، و بعد ربع ساعة خرج من جثته شاب أسود أشعث عاري الجسم و حاول الفرار فلحقت

به و تصارعت معه ، كانت قوته أضعاف قوتي و لكني تمكنت من قتله بفضل الخنجر الذي أعطانيه السيد عبد القدوس .

لم يعرف ياسين العيدوس مَن ذالك العجوز الذي قتله ولا لماذا أمر السيد عبد القدوس بقتله ، أما أنا فقد عرفت جواب تلك الأسئلة بعد ذالك بسنين.

بحلول الموسم الدراسي الجديد شغلت في الوراقة بسبب الرواج الكبير و عجز مبارك عن خدمة الزبائن بمفرده ، و استمر الأمر على ذالك الزخم طيلة شهر غشت الذي لم أتغيب فيه عن الوراقة إلا ثلاثة أيام اليوم الذي زرت فيه ياسين العيدوس و يومين قضيتهما في القرية ، و كذالك الأمر في شهر شتنبر بأكمله و بحلول أكتوبر بدأ الرواج يخف .

بذور فرنسا

في الثاني من شهر أكتوبر لتلك السنة قمت بطلاء الواجهة الخارجية لأبواب المحليين التجاريين اللذين كان في ملكية مصطفى بنفس لون باب الوراقة . و بحلول الساعة الواحدة ظهرا نفذ مني الطلاء قبل أن أتم طلاء الأبواب ، ولأن بائع مواد البناء الأقرب إلي أغلق إلى ما بعد فترة الغذاء فقد قمت باستعارة دراجة مبارك النارية التي كانت من نوع بيجو مائة و ثلاثة ، و توجهت إلى شارع أنفا من أجل شراء حاجتي من الطلاء .

في شارع أنفا و على مقربة من أسيما خرجت سيارة صغيرة من نوع هيونداي من طريق فرعية و دخلت إلى الشارع من دون أي إشارة مسبقة ، حاولت تفادي الاصطدام بها ما أمكن و فشلت نظرا لسرعتها فقذفتني أنا و الدراجة لمسافة ثلاثة أمتار ، ارتمت نعلي البلاستيكية بعيدا ، قمت و أنا حافي القدمين لأجد الدراجة قد تحولت إلى خردة . جلست على الرصيف ، و اقترب مني شرطي مرور كان يقف على الدوار الذي يفصل شارع أنفا عن شارع المطار و طلب مني أن أظل جالسا ، نظرت إلى السيارة التي صدمتني كانت سائقتها شابة في حوالي الثالثة و العشرين من عمرها ، نزلت و تفقدت مصباح سيارتها الأمامي المكسور و الانبعاج المحيط به ، سبت و لعنت بالفرنسية ، نهضت و اقتربت منها و قلت :

– إنه خطأك و لكن لا بأس ما دمت أني سالما .

نظرت إلى قدمي الحافيتين و إلى أثار الطلاء على ملابسي و على أطرافي ثم قالت :

– لن أكلمك سيحضر بابا ليكلمك .

و صعدت إلى سيارتها و أجرت مكالمة هاتفية ثم أشعلت سيجارة و شغلت موسيقى غربية ، اقترب الشرطي من نافذة سيارتها المغلقة و طلب منها أن تفتح ، أنزلت بضعة سنتيمترات من الزجاج ، قال :

– من الأفضل لك أن تُسوِّي الأمر معه خارج نطاق القانون .

و لأن صوت الموسيقى كان مرتفعا فقد قالت بصوت عال :

– علمني والدي أن لا أكلم الرعاع .

التفت إلي الشرطي و أشار إلي بأن لا أبرح مكاني ثم شرع في تنظيم حركة السير التي تعطلت بسبب الحادث . بعد نصف ساعة حضر والدها في نفس الوقت الذي أشعلت فيه سيجارة جديدة فظلت تكلمه و يكلمها و هي تنفث الدخان بالقرب من كتفه ، قال الشرطي الذي كان يقف بالقرب مني :

– لا تعجب يا ولدي إنهم الطبقة المترفة .

همست صفية :

– إنهم بذور فرنسا .

لم ألتفت لأبحث عن مصدر الصوت لأني كنت متيقنا أني لن أجدها ، و كل ما سأفعله هو إثارة ريبة الشرطي المتعاطف معي ، قلت :

– هذا صحيح ؟

قال الشرطي :

– اهتموا بالحرية الشخصية و نسوا أشياء أخرى أهم .

قالت صفية :

– بل إنهم تسربلوا بعبودية الغرب فنسوا أنفسهم .

قلت :

– تماما .

قال الشرطي :

– لقد فرطوا في تقاليدنا و عاداتنا .

قالت صفية :

– لقد فقدوا الهوية فلا المغاربة يعتبرونهم من أبناء الشعب و لا الغربيون يقبلون بهم كأناس مساوين لهم حتى و إن لبسوا مثلهم و أكلوا مثلهم و تحرروا من الأخلاق مثلهم .

قلت :

– إنها مصيبة .

تقدم نحوي والد الفتاة و أخرج من الجيب الداخلي لسترته ورقة نقدية من فئة مائتا درهم و رماها في وجهي ثم قال بالفرنسية .

– خذها و انصرف .

تأملته جيدا و تمنيت لو أني أستطيع استكشاف السبب الذي يجعله يحس بكل هذا الاستعلاء ، التفتُ إلى الشرطي و قلت :

– إنني مصاب استدعي سيارة الإسعاف .

ابتعدا مني و تحدثا بضعة كلمات ثم أخرج والد الفتاة هاتفا نقالا و ضغط على بضعة أزرار ، بعد عشرة دقائق حضرت سيارة شرطة و نزل منها شرطي برتبة ضابط و صافح والد الفتاة ، قالت صفية :

– إنه طاهر بيرون ضابط فاسد و قد ثم نقله من الحسيمة إلى البيضاء كعقوبة له على عدة تجاوزات قام بها .

قلت :

– جيد .

قالت :

– قبل بضعة ساعات كادت سيارة أجرة أن تصدم ابنه الوحيد بلال .

اقترب مني الضابط برفقة والد الفتاة و قال :

– انهض .

– لا أستطيع النهوض فأنا مصاب و أحتاج إلى سيارة إسعاف .

– إذا استمريت في تظاهرك بالإصابة فسنحملك على متن سيارة شرطة و ليس سيارة إسعاف .

– إلزم صلاحياتك يا حضرة الضابط فأنت لست طبيب حتى تجزم بأني أتظاهر.

بسط يده لوالد الفتاة ، أعطاه بضعة أوراق نقدية ، أمسكها و لوح بها أمام أنفي ثم قال :

– هذه ألف درهم لو طليت جميع جدران حيكم ما كسبتها ، ضعها في جيبك و خذ دراجتك و انصرف فانت تعرقل حركة السير .

– هل كنت ستقبل بها إذا كان المصاب هو ابنك ؟

تغيرت ملامحه بفعل الغضب و قال :

– أنا ليس لي أبناء يا كلب .

– ستعلم من الكلب و لكن بعد أن تسأل عن سيارة الأجرة التي كادت تصدم بلال صبيحة هذا اليوم .

صرخ في وجهي :

– من بلال ؟

قلت بصوت عال و نبرة حادة :

– بلال ابنك الوحيد يا سيد طاهر .

اتجه صوب السيارة التي نزل منها و هرول والد الفتاة خلفه و بعد دقيقة عادا بنفس الطريقة التي ذهبا بها الأول يحث الخطى و الثاني يهرول خلفه ، قال الضابط :

– من أنت ؟

– هل علمت من الكلب ؟

– ماذا تقصد ؟

– ستعرف قصدي بعد أن يُرمى بك من البيضاء إلى سمارة كما رُمي بك من قبل من الحسيمة إلى البيضاء .

ارتعدت شفتاه و ظهر عليه الارتباك لأول مرة ، التفت إلى شرطيين درّاجين التحقا بالموقع مؤخرا و قال لهما :

– استدعوا سيارة إسعاف و قوموا بالإجراءات القانونية .

سعى والد الفتاة ليكلمه فنهره و طلب منه أن يقف بعيدا ، في المستشفى أخبرت الطبيب أني لا أستطيع السماع بأذني اليمنى و أني أجد صعوبة في التنفس ، أجرى علي بعض الفحوصات و أعطاني ظرفا يحمل توصية و طلب مني زيارة مصحة خاصة بعينها ، و حرر لي شهادة طبية تثبت عجزي عن مزاولة أي عمل لمدة ثلاثة أشهر .

كاد مبارك يبكي حين عاين دراجته النارية ، غير أن مبلغ الألفي درهم الذي أعطيته له من أجل إصلاحها جبر خاطره و جعله يردد مرارا :

– ما دمت أنت سالما فلتذهب الدراجة بغير رجعة .

بعد خمسة أيام من الحادث لبست بدلة الأحد عشرة ألف درهم بعدما وضعت في جيب السترة الداخلي مبلغ أربعين ألف درهم ثم استقليت تاكسي و توجهت إلى المحكمة الابتدائية التابعة لنيابة الفدا مرس السلطان ، جلست في قاعة خاصة بالانتظار بالقرب من امرأة عجوز و ابنها ، بعد خمسة دقائق جاءت الشابة التي صدمتني ، كانت برفقة والدتها ، لم أستطع أن أحدد أيهما كانت تبدُ أكثر تصابيا من الأخرى الفتاة أم أمها ، فكلتاهما ارتديتا سراويل جينز و أحدية رياضية أما أصباغ الوجه و الأظافر و الإكسسوارات فهي لافتة مكتوب عليها بالخط العريض النساء لحم على وضم إلا ما ذُب عنه .

تحدثتا بلغة هجينة عرنسية مزجت لغة الضاد بلغة المستعمر ، قالت الأم :

– هل ترين ذالك المحتال ؟

– لا إنه ليس هنا ؟

– أرجو أن يتغيب عن المقابلة و ينتهي الأمر .

– لماذا أنت مرعوبة ؟ ذالك الصباغ المتسول يرغب في بعض الدراهم ، أعطوها له و ننتهي .

– لا يا نسرين لن يحصل على درهم واحد ، و ما سأعطيه له أعطيته لمحامي مختص في التعامل مع تلك النماذج .

ظلت المرأتان تتحدثان من دون أن تعلما أن صاحبهما يستمع ، قام ابن المرأة العجوز و طلب مني أن أنتبه إلى أمه إلى حين عودته ، وافقت على شرط أن لا يتأخر ، دمعت عينا العجوز بعد أن ذهب ولدها و وضعت يدها على صدرها و كأنها أحست بحرقة مفاجئة ، تعجبتُ من فعلها فصرفت انتباهي إليها و أعرضت عن الثرثارتين ، و من دون أن أسأل كشفتْ عن سبب لوعتها فقالت :

– مات زوجي و لم يترك لنا سوى شقة مكتراة في حي الحفارين ، حاول مالكها طردنا عن طريق المحكمة و لكنه فشل و حكمت له المحكمة بزيادة في مبلغ الإيجار بنسبة خمسين في المائة فصرنا ندفع له سبعمائة و خمسين درهما شهريا .

توقفت عن الكلام و نظرت إلى الجهة التي ذهب منها ابنها و لما تيقنت أنه لا يزال بعيدا اطمأنت و استأنفت :

– فلجأ صاحب البيت للمكر و طلب منا أن ندفع واجب الإيجار كل سنة بدل كل شهر و ذالك لأنه يقطن بفرنسا و لا يزور المغرب إلا كل سنة ، أخذ مستحقات هذه السنة ، و في الوقت الذي كنا ننتظر منه تسليمنا التوصيلات سجل دعوى قضائية ادعى فيها أنه لم يحصل على مستحقاته لمدة اثنتا عشرة شهرا، تعاطفوا معنا هنا و أبلغونا أنه إن لم يحصل على مستحقاته في مدة لا تتجاوز ثمانية و أربعين ساعة فسيصدر حكم نهائي بالإفراغ الفوري ، و نحن لا نستطيع توفير هذا المبلغ في المدة المحددة .

و حكتْ عن ابنها الوحيد الذي يُعِيلها و يعول أسرته المكونة من زوجة و ابنتين ، و عن راتب قدره ألفي درهم يتقاضاه مقابل عمله كحارس ليلي في المنطقة الصناعية لعين السبع ، و لم تتوقف عن الحكي إلا بعد أن لمحت محامي خصمتي يقترب منا .

قالت المرأة المتصابية :

– هل قمت بالواجب ؟

– يؤسفني أن أخبرك أن الشاب الذي صدمته ابنتك بسيارتها يا سيدة فايزة له معارف نافذين بدليل أن التقرير الطبي بالإضافة إلا تقرير الشرطة يصبان في مصلحته ، و الحل الأمثل في هذه الحالة هو الصلح .

نظرتْ إلى ابنتها باستغراب وقالت :

– قلتِ إنه شاب بسيط يشتغل صباغا .

ردت البنت بتذمر :

– إن ذالك العفن يرغب في الدراهم أعطوها له و ننتهي من هذا الكابوس .

قال المحامي :

– إن المقابلة بعد عشرة دقائق و يجب أن نحدثه الآن ، فهل ترينه يا نسرين ؟

نهضت و جالت ببصرها في أنحاء المحكمة و في الوقت التي ظننت أنها ستنتبه إلي خرجتْ و ألقتْ نظرة على الناس الذين يقفون بالخارج ، قال المحامي بنبرة تشكيك :

– قاضي هذه القضية صديقي ، و طلبت منه إعدام الملف أو التلاعب فيه . أتعرفين لقد قال أنه لا يستطيع مع هذا الملف بالتحديد .

قالت المرأة :

– نحن أيضا نعرف أُناسا نافذين و لن يستطيع جربوع صغير أن يركعنا .

حضرت الفتاة و ابن السيدة العجوز في نفس الوقت ، كان مهموما و شارد الذهن ، جلس في مكانه من دون أن يتكلم ، هممت بالوقوف فانتبه إلى تصرفه و شكرني ، قلت بعد أن وقفتُ قبالة خصمتي :

– لقد أسعدني الحديث مع والدتك .

أعاد شكري مع ابتسامة عفوية أَبَقَت من رِق الغم الذي تسربلت به ملامحه ، انتبهت الفتاة لي و ركزت بصرها علي بذهول ثم أمسكت بذراع أمها و قالت :

– إنه هو .

قالت الأم :

– الصباغ ! أين هو ؟

أشارت الفتاة لي بحواجبها . اندهش الثلاثة ، ولم يظهر عليهم أي أثر للحرج ، قال المحامي :

– تشرفت بلقائك سيد شعيب .

حملقت فيه من غير أن أنبش بحرف واحد . قالت المرأة و عينيها مركزتان على علامة لوي فيتون على سترتي :

– أعتذر سيد شعيب عما بدر من زوجي في موقعة الحادث .

قلتُ

– لقد رمى في وجهي مائتي درهم و طلب مني الانصراف ، و لو أنه رماني بكلمة طيبة لما التقينا هذا اليوم هنا .

– أعلم أن زوجي بغل و لذالك لم أصحبه معي اليوم .

قلت :

– و أنا أيضا علمت أنه بغل و لذالك حرصت على أن أكون هنا اليوم .

قالت الفتاة :

– لا تشتم والدي .

لم أجبها و لم أنظر إليها . قالت:

– لقد كنت في ذالك اليوم منزعجة و لذالك تصرفت بتلك الطريقة .

لم أتكلم ، فطن المحامي إلى مقصدي و تدارك حتى لا تتعرض لمزيد من الإحراج وقال :

– نعلم أن دراجتك تضررت و سنقوم بإعطائك مبلغا يكفي لإصلاحها و زيادة .

و نظر صوب المرأة فقالت و كأنها انتبهت من غفوة .

– سأعطيك فورا ميلغ ألف درهم و بعد الصلح ستحصل على ألف أخرى .

التفتَ إلى العجوز و ابنها و كانا ينصتان باهتمام فقلت للشاب :

– لقد أخبرتني والدتك أنك تحتاج لمبلغ تسعة آلاف درهم لتسديد مستحقات سكنك .

أخرجت الأوراق النقدية من جيب سترتي و عددت تسعة آلاف درهم أمام العيون المذهولة و أرجعت الباقي إلى جيب سترتي و قلت :

– خذها و اعتبرها سلفة ، و دون عنواني .

دون الشاب العنوان بعد أن أخذ النقود، تهللت أساريره و شرع يجر أمه مخافة أن أرجع عن قراري أما العجوز فلم تتوقف عن الدعاء لي إلى أن غابت عن أنظارنا .التفت صوب المرأتان و المحامي و قلتُ:

– ماذا كانت تقول السيدة ؟

قالت :

– أنا آسفة يا بني لأننا لم نحسن التصرف معك ، و ما دمت أنك في غنى عن المال فإني أرجو منك أن تتنازل عن دعواك تفضلا منك .

تدخل المحامي و أعلن أنه حان وقت المقابلة ، و كانت النتيجة أن قضت المحكمة بسحب رخصة القيادة من الفتاة و حكمت لي بمبلغ ثلاثة آلاف درهم كتعويض عن الأضرار التي لحقت بالدراجة ، و بعد ستة أشهر من الحكم الأول حكمت لي نفس المحكمة بمبلغ عشرين ألف درهم كتعويض عن الإصابات الجسدية التي سببتها لي الحادثة ، و قد التقيت بالسيدة فايزة بعد ذالك بمدة و كانت لي معها قصة أخرى سأذكرها في وقتها ، أما العجيب في تلك الحادثة بأكملها فهو أنه بعد ثمانية و أربعين ساعة من إعطائي المال لذالك الشاب ، زارني هو و أمه في وراقتي و ردا إلي نقودي و أخبراني أن صاحب الشقة اعترف لهما أنه كان ينوي إخراجهم من شقته و ليس أكل مالهم بالباطل و لذالك فإنه ترفع و أعادها إليهم و بدورهم أعادوها إلي أخذت منها سبعة آلاف و أعطيت المرأة العجوز ألفين كهدية .

و لا زلت أذكر جيدا منظر تلك الفتاة و هي تجري خلفي في نفس الوقت الذي أشرت فيه إلى تاكسي ، أوقفتني و قالت بارتباك :

– لست منزعجة من الحكم الذي صدر ، و الذي يزعجني هو تجاهلك لي ، ما حدث كان سوء تفاهم و أنا لست كما تظن و سنصلح الأمر ، و أرجو منك أن تصحبني إلى ماكدونالدز و أنا من ستدفع .

ركزت بصري على السيجارة المثبتة بين السبابة و الوسطى و صعدتُ إلى التاكسي ، وقلتُ قبل أن أغلق الباب دونها :

– علمني والدي أن لا أصطحب التافهات .

هذا ما كنت أبحث عنه

الثلاثاء الثاني عشر من شهر أكتوبر ، زارتني فيه سناء قبيل العصر ، كانت سعيدة و تثرثر على غير عادتها ، حكت لي عن أيام طفولتها التي قضتها في بيت عمتها خديجة أمزار ، و كيف كان حمزة يسرق سيارة السيد عبد القدوس و يتوجهون بها إلى شاطئ عين الذياب ، و عن الشجارات التي كان يفتعلها أبناء عمتها مع أولاد أجانب و تنتهي دائما بانتصار آل مرواني ، و تكلمت عن لحظات التسامر في الليالي الصيفية ، وعن غباء أحمد عندما يتعلق الأمر بالأحاجي ، و عن هستيريا الضحك التي كانت تنتاب عادل ، و تحدثت عن براعة منير في الرسم ، و كيف أنه كان يرسم أشياء جميلة جدا باستخدام قلم الرصاص فقط ، كانت تتكلم و تضحك ، سألتها عن سبب سعادتها ، قالت :

– لقد كنت أخشى أن تبلغ خديجة عاما و نصف ، و قد بلغتها ليلة البارحة ، و الآن أنا أستعجل تقدمها في السن لأنني أريد أن أجعل منها حين تكبر صديقتي ، بل صديقتي الوحيدة .

– ألا تفكرين في الزواج مجددا ؟

حركت حاجبيها للأعلى و قالت :

– هل تفكر في زيجة ثانية ؟

– إذا كانت تشبهك فالأمر لا يحتاج إلى تفكير .

احمّر وجهها خجلا و ضحكت ثم قالت :

– من تشبهني لن تقبل بك لأنك تفتقد للوفاء .

– ربما .

شربتْ كوب الشاي الذي قدمته لها و أبدت إعجابها بتقدم مشروع الوراقة و صعدت إلى شقتها ، بقيت فيها لحوالي ساعة ، ثم نزلت و قطعت الشارع و عادت برفقة تلك المربية تحمل خديجة ، ودعتني و غادرت .

في صبيحة اليوم التالي و عند الساعة التاسعة صباحا وقفت سيارة أجرة في الجهة المقابلة من الشارع ونزلت منها مربية خديجة ، و فور مغادرة السيارة تحلق مجموعة من النسوة حول المرأة البدينة التي كانت تنوح و تلطم ، تسمرت في مكاني و انتظرت إلى أن عاد مبارك بالخبر الصادم ، لقد انتحرت سناء ، لم استطع استيعاب الخبر و رفضت التصديق ، و ظللت جالسا في مكاني مصر على جحود الخبر، تحلق الناس في مجموعات يتحدثون عن غرابة موت مصطفى أمزار و أخته و ابنة أخته في مدة وجيزة ، تبادل مبارك الحديث مع الأخ الأصغر للمرأة البدينة و عاد بالخبر اليقين .

في الليلة الفائتة كانت سناء سعيدة و قد قامت بإعداد العشاء بنفسها ، ثم شغلت على جهاز الفيديو مسرحية مدرسة المشاغبين و بقيت تتفرج و تضحك إلى حدود منتصف الليل، ثم خلدت للنوم ، و بحلول الساعة الثالثة صباحا ، أيقظت المربية وطلبت منها أن تغير حفاضة و ملابس خديجة ،و لما سألتها إذا ما كانت تنوي الخروج في تلك الساعة المتأخرة قالت أنها ستقوم بأخذ خديجة إلى مكان بعيد لن يستطيع مصطفى الوصول إليه كانت تتصرف بجدية و بثبات و فشلت محاولات المربية في منعها من الخروج ، و بحلول السابعة و النصف صباحا حضرت الشرطة إلى الشقة و اقتادت المرأة إلى مخفر مجاور و بعد تحقيق روتيني أفرج عنها ، و قد علمت أثناء التحقيق أن سناء ألقت بنفسها و هي تحمل ابنتها تحت عجلات القطار القادم من فاس و المتجه إلى مراكش و كان ذالك على مشارف مدينة برشيد التي تبعد عن البيضاء مسافة نصف ساعة .

اتصلت بعثمان و سألنا عن المشرحة التي أخذ إليها جثمان سناء و ابنتها ، وجدت هشام أمزار يجلس خارج المشرحة مسندا ظهره إلى إطار سيارة والده و الدموع تنهمر من عينيه ، أشفقت عليه لمصابه و في نفس الوقت حسدته عن تلك الكمية الكبيرة من الدموع التي تيسرت له بتلك السهولة ، في الداخل كان خليفة مختلفا تماما عن خليفة الذي رأيته يوم وفاة مصطفى ، لقد كان حزينا بصدق و ليس كما كان يصطنع عند وفاة السيد عبد القدوس و كذالك عادل و صفية وحمزة ثم مصطفى بعد ذالك ، وجدته يجلس على كرسي في ممر المشرحة و يحاول جاهدا كبح دموعه من دون جدوى ، و كأن البكاء بالنسبة إليه شيء عير مقبول ، جلست عن يمينه و هممت بتقديم التعازي له ، طلبَ مني أن أسكت قبل أن أكمل أول كلمة . حضرت طبيبة تحمل بعض الأوراق و طلبت منه التوقيع ، ثم قدم رجلان و قدما إليه التعازي و أعربا عن استعدادهما لتقديم خدماتهما ، نادى عليه موظف تابع للمشرحة و قبل أن يلتحق به التفت إليّ و قال :

– لقد كنت أعلم أن لك علاقة بموت مصطفى بطريقة أو بأخرى ، و لم يغضبني ذالك لأني كنت أتمنى موته ، و لكن اعلم يا صعلوك أني سأحرص على أن تغادر هذه الحياة قبلي ، لأنك ادعيت باطلا قدرتك على حماية سناء و قد وثقت بك المسكينة .

اندهشتُ لأنه كان على علم بما يحصل ، و تألمتُ لأنه كان صادقا فيما قال .

أثناء مراسم الدفن التي تمت عند الساعة السادسة مساءا راجت بعض الأقاويل على أن سناء تركت في حقيبتها رسالة أبلغت فيها عن سبب انتحارها ، لم أستطع الأكل و لم أرغب في الكلام مع أي أحد ، حاولت النوم و عجزت ، لقد كنت أتألم من دون أن أنجح في تحديد منبع الألم ، لم أكن أعرف إذا ما كان السبب هو حزني على سناء و ابنتها ، أو أنه خوفي من العدو الغامض ، أم أنه ندمي على اقتحامي البرزخ الفاصل ما بين المعلن و المستور ، أو لعله خوفي من أصير وحشا فالأمر ليس مستحيلا و كل ما يحتاجه هو أن تبتعد عن إنسانيتك شيئا فشيئا إلى أن تتحول تدريجيا إلى وحش من دون أن تلاحظ الفرق .

غفوت قبل الفجر قليلا فرأيت صفية تحمل خديجة الصغيرة بين ذراعيها ، قالت :

– ليس ذنبك يا شعيب ، إنه ذنبه .

و أشارت بسبابتها إلى كرسي السيد عبد القدوس ، التفت صوب الكرسي فوجدته يجلس عليه ، انتبهت من نومي فوجدتني أنظر إلى الكرسي الشاغر ، عند الفجر استقليت القطار من محطة الوازيس إلى

محطة بوسكورة ، ثم سيارة تاكسي من بوسكورة و نزلت في منطقة تقع بين مدينة برشيد و بلدة بومعيزة ، و مشيت إلى أن وصلت إلى المكان الذي ماتت فيه سناء ، كان ممرا على سكة الحديد مخصص للسيارات ، تمشيت فيه جيئة و ذهابا لعدة مرات ، ثم جلست على قاعدة إسمنتية خاصة بعمود كهرباء تابع لسكة ، لم أعرف سبب قدومي لذالك المكان ، و بقيت على تلك الحال إلى أن تقدم نحوي واحد من الرعاة الذين كانوا ينظرون إلي من بعيد باستغراب ، اقترب مني بحذر و قال :

– هل تريد الانتحار يا هذا ؟

قلتُ

– لا ، أنا أبحث عن شي يخصني .

و لما سألته عن سبب سؤاله قال :

– في فجر اليوم الماضي أحضرنا أغنامنا إلى هذا المكان قبل بزوغ الفجر ، و وجدنا سيارة بيضاء من نوع بيجو مركونة في ذالك المكان ، و بعد زوال الظلمة بقليل نزلت منها سيدة شابة جميلة تحمل ابنتها و جلست على هذه القاعدة التي تجلس عليها الآن ، فتحتْ علبة بسكويت أكلت قطعة و أطعمت ابنتها الباقي ، و فيما كنا نختلس النظر إليها سمعنا صوت قدوم أول قطار ، قامت و هي تحضن ابنتها وتوسطت السكة و بدأت تسير في نفس اتجاه القطار مولية ظهرها إليه ، ظننا أنها ستخرج من بين القطبان الحديدية فور اقتراب القطار لكنها لم تفعل ، لقد حزنا كثيرا على تلك الطفلة الصغيرة و المرأة أيضا فقد كانت شابة و جميلة . و لكنك لم تخبرني عن الشيء الذي تبحث عنه .

كفكفتُ دموعي ، و قلتُ :

– هذا ما أبحث عنه .

– البكاء !

– أجل .

نهاية المحطة

عدت إلى الوراقة و ارتميت على السرير، ثم شرعت في التهام قطع البسكويت الذي أحضرته معي ، تذكرت السيد عبد القدوس و صفية و عادل و حمزة ثم سناء ، تساءلت بصوت مسموع :

– من سيكون التالي ؟

همستْ صفية :

– منير .

وجدته يجلس على نفس اللبنة ، كان قد فقد ما يقارب نصف وزنه و بد كهيكل عظمي بملابس متسخة و أظافر طويلة ، ابتسم لما رآني و قال :

– هل التقيت بعبد المالك شرواط ؟

– لم تكن هناك أي وصية ، و كل ما في الأمر هو أن والدك أرادك أن تعلم تاريخ أسرتك .

– ألم يقل لك شيئا آخر ؟

– إنه مستعد لأن يعطيك كل ما ترغب فيه من أموال على شرط أن لا يتجاوز الطلب ثلث ممتلكاته .

ابتسم وقال :

– إنه حذر كعادته فأنا أعلم تاريخ أسرتي منذ نعومة أظافري ، و أعلم أني آخر خادم لآل مرواني .

– و لماذا كذب علي ؟

– لقد أخبرك بالوصية ، فقد أوصى أبي أن أستقل بنصيبي من ثروة آل شرواط و هو الثلث مما يملكون .

– إنه داهية .

لم ينتبه لكلماتي الأخيرة ، كان يحملق في شيء ما خلفي ، قلتُ :

– و كأنك تنتظر خطبا ما ؟

قال من غير أن يصرف نظره عن الجدار خلفي :

– أجل .

– هل علمت بأمر سناء ؟

– لقد أخبرني عادل بالأمر ليلة البارحة ، و كذالك .....

توقف عن الكلام و ابتسم ، استدرت لأعرف إلى ماذا ينظر ، وجدت على الجدار رسما بالفحم لصفية المرواني ، لم يخطئ شيئا من تفاصيل ملامحها ، حتى نظرتها الحزينة و ابتسامتها المصطنعة ، كُتب على يمين الرسم بخط الرقعة .

أنا خادمٌ وضعت له قيود

أنا عبدٌ

أنا ظِلٌ

أنا إرثٌ

أنا الموتُ

أنا عاشقٌ رسمت له حدود

أنا حزنٌ

أنا يأسٌ

أنا عجزٌ

أنا الصمتُ

ارتطم شيء بالأرض في الطابق السفلي ، قلت :

– هل حضر أصدقائك ؟

– لقد حضرت نهاية حربي .

– لم أفهم ؟

– أشكرك عن الخدمات التي قدمتها لي ، انتبه لنفسك .

تذكرتُ همس صفية الأخير ، قلت :

– الوداع يا صديقي .

و لمَّا وليته ظهري قال :

– لقد بدأت حربك يا شعيب إنه ينتظرك تحت في أسفل الدرج .

الفهرس

الإهداء	5
سيدي القارئ	7
بداية المحطة	9
من لا يفكر لا يغادر القطيع	15
الخطر لا يحيق إلا بالذين يتكلمون	19
هل انتهت رحلتك مع يوهان	25
انصرف الشهود	31
إنها الحقيقة رغم غرابتها	37
أو لم يخبروك أنه يجب عليك أن لا تسأل	43
ابحث عن دميان	47
يقول لك الأسياد	51
من يحاول كشف وجودهم يتم إسكاته	57
سيكون لك أولياء و أعداء	61
أقصد القلب	65
كل ذي عقل ضعيف هو ضحية لنا	71
سيد الصناديق	77
عقدت اجتماعات سرية	81
لا يمكن رؤية ما خلفه	87
اللغز الذي تمنى برنارد شو أن يجد له حلا	91
تجاوز التصديق و الهوس ليصل إلى الجنون	97

العالم الحقيقي مخيف 103
العدو الغامض يتربص بك 109
يستحيل أن تدفن الأسرار مع الجثث 113
لا بأس أن تعلم أنها مخطوطة 117
عرض سينمائي أقيم من أجلها 123
الوقت هو أثمن شيء على هذه الأرض 129
بل الإغراق المعلوماتي 135
بذور فرنسا 139
هذا ما كنت أبحث عنه 147
نهاية المحطة 151
الفهرس 153

احذر يا شعيب أن تسلب إرث آدم و تفقد القدرة

على تسهية الهسهيات بأسمائها الصحيحة